عذراء بصرى

رواية من التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

عذراء بصرى

رواية من التاريخ

د. محمد منير الجنباز

مكتبة التوبة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

العنوان الإلكتروني للمؤلف
MWNeRj@yahoo.com

مكتبة
التوبة
شارع جرير - الرياض - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ - فكس ٤٧٧٤٨٦٢
الرياض ١١٤١٥ - ص.ب ١٨٢٩٠

تقديم

ليس هناك أفضل لتوسيع مدارك الإنسان من قراءة التاريخ، وإذا سئلنا: أي تاريخ؟

عند ذلك تأتي الأولويات:

التاريخ الإسلامي الموثق يأتي على رأسها، ففيه تتجلى شتى أنواع الثقافة والمعرفة عصراً فعصراً، وتنفتح أمام القارئ نافذة شفافة يرى من خلالها ذلك العصر بكافة مكوناته ومعالمه؛ حاكميه ومحكوميه، حتى إنه ليدخل في أعماق الحكام والأشخاص ويشكل لكل واحد منهم هيكلاً ثم يحركه حسب الوقائع التي عاشها ذلك الحاكم؛ فيستجلي فكره وعقله

وتصرفه ودرجة ذكائه وعلى ما تنطوي عليه نفسه، ويعرف بماذا ارتقى هذا وبماذا هوى ذاك، ومن كان في حاشية هذا ومن كان في حاشية ذاك، وأثر تلك الحاشية في ارتقائه وعلوه أو في هُويّه وانحداره، ويتعرف على المقربين من الحاكم ومدى المحاباة والإخلاص والوثوق بينهما أو المكر والشك والوقيعة، من يشير بالبناء والتشييد وحفظ البلاد من العدو الخارجي الطامع بالبلاد، ومن يجر البلاد إلى الضياع والخراب وتسلط الأعداء.

التاريخ ملحمة تصنعها الأجيال ومنها يقتبس قارئ التاريخ المنهج الذي يخطه لنفسه في الحياة، فأمامه تجارب من مضى، أفراداً وجماعات وحكاماً ومحكومين، وصالحين ومصلحين وفتانين ومفتونين.

وبعد هذا: فدراسة **التاريخ المعاصر** لبلده مهم خصوصاً للقضايا التي لها أثر واضح على

الحياة المعاصرة ليكون على علم ومعرفة بما يجري في محيطه وأين موقعه هو في هذه المسيرة.

ويأتي في المرتبة الثالثة **تاريخ الأمم** المعاصرة وتكوين هذه الأمم ومرتكزاتها ومواطن قوتها وضعفها، وتكوين شعوبها، ومدى تقدمها ورقيها وأسباب ذلك، فيتطلع إلى مثل هذه النماذج ويدع النماذج المنحطة المتهالكة، فالحكمة ضالة المؤمن إن رأى ما يفيده اقتبسه.

وبعد؛ فهذه الرواية مقتبسٌ بعض ما فيها مما ورد في كتاب فتوح الشام للواقدي، حيث كانت قراءتي لهذا الكتاب منذ كنت في المرحلة الأولى المتوسطة، وفي ذلك الوقت افتتح المركز الثقافي في حماة سنة ١٩٥٦م، وكان موقعه في طريق مدرستي فكنت أمره في أثناء عودتي لأتصفح الكتب فيه، وكان القيّمون

عليه يشجعون على القراءة والمطالعة ولا يمنعون أمثالنا الصغار من تناول الكتب المرجعية من على الرفوف للتعرف عليها أو قراءتها، فوقع في يدي هذا الكتاب بورقاته الصفر التي لا تروق للصغار، لكني وجدت فيه البطولات الإسلامية خصوصاً لخالد بن الوليد ﷺ، فعلقت هذه البطولات في ذاكرتي، وأحببت من يومها التاريخ، لكنني لما اطلعت على المؤلفات الأخرى في التاريخ ـ فيما بعد ـ كالبداية والنهاية، والكامل في التاريخ وغيرهما، لم أجد فيها بعض ما كنت أقرؤه في كتاب فتوح الشام لمحمد بن عمر الواقدي، وعند البحث عن الواقدي وجدت أن العلماء ضعفوه في الحديث ومدحوه في التاريخ والسير ـ والله أعلم ـ وقد ناقشت يوماً أحد الأساتذة الذي اطلع على كتاب فتوح الشام في مدى صدق روايات الواقدي في كتابه فتوح الشام،

فقال لي: أخباره جيدة، وقد فصل ما أجمله غيره، وما ذكره يفيد في كتابة المسلسلات «الدراما».

وعليه، فبعد الإحجام مني عنه كانت هذه الرواية.

د.محمد منير الجنباز

فهرس العناوين

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
فهرس العناوين	١١
عذراء بصرى	١٥
بصرى الشام	١٥
الإسلام يدق أبواب الشام والعراق	٢١
بصرى قبل الفتح الإسلامي	٢٣
بعثة الشرف	٢٦
وفد توما في بصرى	٣٥
وصول جولي إلى دمشق	٥٧
شرحبيل بن حسنة يتوجه إلى بصرى	٦٧
جليلو في دمشق	٧٣
حصار دمشق	٩٢
خطة الحصار	٩٥

الموضوع	الصفحة

حال دمشق ٩٧
المعارك حول الأسوار ١٠٣
روماس في خضم الأحداث ١١٨
جولي في حيرة وقلق مما يحدث ١٢١
على الباب الشرقي ١٢٧
الاجتماع بالقادة بعد هذا الهجوم ١٣٣
جليلو يغير موقعه ١٣٧
جليلو يتحرك ١٥٢
يونس وجليلو ١٦١
جولي ١٦٨
يونس يكشف الخطة لجليلو ١٨٢
أبو عبيدة على باب الجابية ١٩٢
جليلو والبحث عن جولي ١٩٥
توما وخيار الخروج ١٩٨
المطاردة ٢٠٨
توما وصحبه ٢١١
العودة ومفاجآت الطريق ٢٢٢
جولي تتعجب ٢٢٩
العودة إلى دمشق ٢٣٦

الموضوع	الصفحة

اجتماع الأسرة ولمُّ الشمل ٢٥٨
وكان الزواج ٢٧٥
ضميمة ٢٧٧

عذراء بصرى

بصرى الشام

مدينة القمح والفواكه والزهر والأعناب، مدينة باسطة كفيها بين شاطئين، جنوبي إلى الصحراء المترامية الأطراف، وشمالي إلى الهضاب والجبال والينابيع والأمطار، لم ترض السفح لكيلا تُحرم جريان النسيم وورود هباته المعطرة بالورد والياسمين، ولم ترقَ الجبل وقمته خشية هوجِ الرياح وعصفها المجنون، والضنّ بالسهل الفسيح الذي يحرمها من امتداد حقول القمح إلى أن تعانق الأفق الرحيب، وهناك على مد البصر يلتقي الأخضر بالأزرق

في لوحة فنية نادرة لا ترى لها مثيلاً، فلا ترى ـ حقيقة ـ إلا ما يسعد النفس أنساً وبهجة وتوقاً وانشراحاً؛ خصوصاً يوم أن تمتلئ سنابل القمح وترتفع برؤوسها المائلة لتقول للفلاح:

أنا ثمرة جهدك فانظر إلي واطمئنَّ على موسم سخي؛ أعرف أنه يسرك تماوجي وتمايسي ذات اليمين وذات الشمال مع هبات النسيم الربيعي، الممتزج بأمواجِ حفيفيَ الشجي ذي النغمة التي تعشقها أذنُ كل فلاح.

فيجيبها بنايه العذب متناغماً معها هزِجاً بفطرته الريفية غير المتكلفة، فيطربها كما أطربته، ويرقصها كما أرقصته، فإذا الطبيعة كلها في هذا الجو الساحر بأطيارها وخلائقها فرحى طروب؛ تسبح الخالق العظيم الذي كساها هذا الجمال.

وكما يسعد الإنسان بالخير ومواسم الخصوبة وجمال الطبيعة؛ تسعد كذلك بقية المخلوقات شاكرة لمن أجرى لها هذا الرزق وهذا العطاء والبهاء.

فموقع بصرى بين أحضان الطبيعة وسط لا هو بالعلو ولا هو بالدنو، ثمانمائة وخمسين متراً متوسط ارتفاعها عن سطح البحر، صحيح أن حجارتها بازلتية سوداء، ولكن ليس كل أسود غير مرغوب فيه، ألا ترى إلى الرأس إذا اشتعل شيباً أتراه يسر هذا البياضُ صاحبه؟ !

لقد ورد في الأثر:

أن إنسان العصور الأولى قد تركه الشيب وهادنه دهوراً، فكانت البداية بإبراهيم عليه السلام حين غزاه الشيب، فاستغرب وأصيب بالدهشة من هذا البياض، وقال:

«يا رب ما هذا البياض؟ فقال الله تعالى:

وقار يا إبراهيم، فقال: يا رب زدني وقارا».

ولولا أن الإسلام قدر أولي الشيب في الإسلام المقيمين على العبادة لما رحب به إلا قليل من عباد الله، ففي الحديث الحسن الذي يرويه الترمذي:

«أن النبي ﷺ نهى عن نتف الشيب، وقال: **إنه نور المسلم».**

وفي الحديث عند أبي داود، أنه قال: «**لا تنتفوا الشيب، ما من مسلم يشيب شيبة في الإسلام إلا كانت له نوراً يوم القيامة».**

وإلا لو كان الشيب محبباً فلماذا يصبغ الشيّابُ شيبهم، أليس هروباً من البياض؟ لكن بصرى قد ألفت السواد لأن هذه الصخور السوداء تتحلل مع الزمن وعلى مدى الدهر فتعطي عندما تتحلل تربة ذات لون بنيٍّ جميلٍ يسر الناظرين، فإذا بها في هذا التكوين الرباني الباهر تزداد تألقاً

وجمالاً، فتجدها مثل حسناء تزينت فأبدت صفحة وجهها البنية وقد اكتحلت عيناها الدعجاوين بالسواد واسترسل لها شعر فاحم يلعب به نسيما الصبا والدبور فيهفهف على الخدين بحركات مثيرة مبشراً بقدوم الليل الذي يستعجل رحيل النهار، فيرخي عليها سدوله فجأة وهذا ما اعتاده أهل بصرى أن يطول ليلهم على نهارهم، فما إن يتبقى على غروب الشمس قيد رمح حتى يبدأ الظلام فيحل السكون وهذا يشكل سكناً وراحة لأهل بصرى بعد عناء يوم من الجهد والعمل.

لقد كانت بصرى منزلاً للتجار العرب القادمين من الصحراء والمحطة المفضلة لديهم؛ وفيها يتم التبادل التجاري بما يجلبه هؤلاء التجار من الجلود والفراء وما تنتجه الصحراء من أعشابها الطبية النادرة وما يصلهم من حضرموت والهند من بضائع يترقبها تجار روما ويدفعون

مقابلها أثمانا مغرية، فبصرى كما قال خالد بن الوليد لشرحبيل بن حسنة:

هي مينا الشام والعراق.

وورد في السيرة النبوية: أن النبي ﷺ وصل إلى بصرى في ريعان شبابه يوم أن عمل تاجراً بمال خديجة رضي الله عنها، وفي بصرى باع واشترى وعاد بالأرباح، وهكذا كان تجار قريش يجنون من تجارتهم كثيراً من الأرباح، وعرف عنهم الغنى والثراء بسبب هذه المهنة، وكان من لا يستطيع ممارسة التجارة بنفسه يساهم بالمال ويوكل من يتّجر عنه ويقاسمه بالأرباح، فمن لم يكن من أهل مكة تاجراً بالممارسة فإنه كان تاجراً بالمساهمة في التجارة، لذلك شملتهم السورة الكريمة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ فكانت تجارتهم مع الشام صيفية ومع اليمن شتوية، ولم يقتصر المغامرون من قريش على التجارة مع بصرى؛ ولكنهم

تعدوها إلى غزة، وقد وصلها هاشم جد النبي ﷺ مرات، فاقترن اسمه باسمها وسُمّيَتْ «غزّة هاشم».

الإسلام يدق أبواب الشام والعراق

بعد الانتهاء من حروب الردة وتمكن الإسلام ورسوخه في الجزيرة العربية، كان توق المسلمين للجهاد وتبليغ الدعوة خارجها تنفيذاً لوصايا النبي ﷺ ونيل الثواب الجزيل جراء ذلك، ولأن الإسلام دين عالمي ليس مقصوراً على العرب وحدهم، وقد سمع الصحابةُ النبي ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب يوم خيبر: «**ادعهم إلى الإسلام، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً للإيمان خير لك من حُمُرِ النَّعَم**». ثم ألم يسمع عدد كبير من الصحابة النبيَّ ﷺ في أحد أيام حفر الخندق؛ يوم أن ضرب الصخرة فقدحت شرراً ملأ الفضاء، فقال: الله أكبر، فلما

سألوه عن هذا الذي رأوه؟ أخبرهم أنه رأى قصور الحيرة وبشرهم بفتحها، وفي الضربة الثانية كبر، فأخبرهم أنه رأى قصور الشام وبشرهم بفتحها، وفي الضربة الثالثة كبر، فأخبرهم أنه رأى قصور اليمن وبشرهم بفتحها؟.

فتلك البشائر تدعو إلى العمل ومباشرة الدعوة والجهاد، زد على ذلك أنه بعث جيشاً بقيادة أسامة بن زيد إلى البلقاء لقتال الروم، وعلى هذا سيّر أبو بكر الصديق رضي الله عنه الجيوش الإسلامية لتبليغ الدعوة وقتال من صد عن سبيل الله؛ بقيادة عدد من القادة، وكان من أبرزهم خالد بن الوليد رضي الله عنه، فكانت له صولات وجولات مع الفرس إلى أن استنجد به أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليكون مدداً لجند الشام، خوفاً عليهم من حشد الروم العظيم الذين أرادوها مع المسلمين معركة فاصلة، وقد نووا بهذا الحشد الكبير أن يبيدوهم، وبعدها يتوجهون

إلى المدينة المنورة التي انطلقت منها جيوش الدعوة ليخربوها.

بصرى قبل الفتح الإسلامي

بصرى المدينة الحصينة ذات الأسوار العالية والأبراج الضخمة فهي في ذلك العهد مَسْلَحة من مسالح الروم على الحدود التي تعد ثغر الشام، وهي مركز الدفاع عنها من الجهة الجنوبية، وكان حاكمها من قبل الروم **روماس**، يأتمر بأمرهم وينفذ خططهم وتعليماتهم، وكان حاكم الشام في ذلك الوقت هرقل العظيم الذي صد هجمات الفرس منذ عهد قريب فنال شعبية كبيرة وأصبح أحد قادة الروم العظام، فزار القدس وقدم فيها قرابين النصر، وقد عيّن قائده توما حاكماً على دمشق ـ وهو أيضاً زوج ابنته ـ وجعله متصرفاً في المنطقة التابعة لها. ونال توما الحظوة عند هرقل، وأصبح الحاكم المطاع بالشام، حتى إن أحد

أبواب دمشق السبعة كان يحمل اسمه ولا يزال، وقد عرف عن **توما** حب الحفلات ودعوة كبار أهل الشام بحضورها، ورغم ما يذكر عن شجاعته إلا أنه كان مسرفاً بالشراب ومعاقرة الخمور، والتمتع بالنساء، وكان ينتقي الجميلات ويغدق عليهن الهدايا والأموال، ولا تذكر له جميلة إلا أرادها، ولا يمتنع عليه أحد أو بيت من البيوتات أو يقف أمام تحقيق نزواته؛ فهو قاس جبار، سليط، وفي إحدى نزوات جنونه بعد السكر والنشوة التي انتابته والفوقية المعهودة عنه ذكرت له **جولي**؛ البنت الوسيمة ذات الحسن والجمال التي فاقت القمر بهاء وجمالاً، ابنة **روماس** حاكم بصرى الأثيرة المدللة عنده ووحيدته التي لم تكمل بعد الستة عشر ربيعاً من عمرها؛ والتي يتغنى بجمالها أهل بصرى كافة، فخفق قلبه على الوصف للعشيق المجهول، وسال لعابه مثل كلب لوحوا له من بعيد باللحم بعد

جوع شديد فسال لعابه وتراقص لرؤيا اللحم ذيله، ثم راح ذهن توما في شرود للحظات، وقد لفت هذا الشرود انتباه منادميه الذين تسمّرت نظراتهم تجاهه وقد عرفوا ما كان يفكر فيه وانتظروا منه أن يبوح لهم بشيء مما خامر ذهنه وشغل عقله وفؤاده ساعة سمع بالجميلة **جولي**، ولعل الماكر الذي ذكر له **جولي** كان على غير محبة ووفاق مع والدها **روماس**، فذكرها ليوقعه في فخ توما الذي لا يستطيع أحد مهما علا شأنه من توابع دمشق أن يتأبى عن تلبية رغباته، وهنا قهقه توما بصوته الأجش ثم قال:

فتاة الريف.. آه يا لنضارة أهل الريف وجمالهم الأخاذ..

ذكرتموني بهذا الجمال الذي غاب عن تفكيري منذ مدة طويلة.

حسناً، وما المانع أن أطلبها من أبيها فهو

والينا المطيع، نعم؛ بل له الشرف أن تكون ابنته من محظيات توما..

سأرسل في طلبها..

ضحك الجميع وصفقوا له علامة الموافقة وشربوا الأنخاب وعلت قرعات الكؤوس.. وما أكثر المداهنين في كل عصر الذين يشجعون الكبار المتنفذين على إشباع نزواتهم وإن أخلوا بكرامة المجتمع وحصانته؛ متجاوزين ما للمجتمع من أعراف وحقوق ينبغي أن تصان.

بعثة الشرف

عاد الصحو إلى توما في صباح الغد بعد جلسة الندماء، وقرر أن يطلب **جولي** من أبيها، وأن يرسل وفداً يحمل لها هدايا قيمة وثمينة لتكون أكثر مدعاة للموافقة والرضا وليكسب قلب الفتاة عندما ترى هدايا توما التي ستأسر قلبها لا محالة.

ولكن من يأسر قلب فتاة عاشقة دخل حب ابن عمها في شغاف القلب وهي تمضي معه أحلى أيام الصبا وتبادل الغرام.. **جولي** و**جليلو** لهما قصة حب لا تخفى على أحد في بصرى، هو ابن العشرين ربيعاً عاش مع **جولي** في بيتين متجاورين فهو قريب منها يراها مذ كانا طفلين صباح مساء، لعبا وتسابقا وأكلا وشربا معاً لا يفارقها ولا تفارقه، أمضيا أحلى فترة الطفولة وتدرجا معاً حتى عرفا معنى الحب الذي تطور من حب الصحبة والمرح والمشاركة في اللعب إلى الغرام المتقد، والولع والهيام وانجذاب العواطف، وقراءة ما في العيون من حب آسر تفصح عن هوىً في النفس لا يكاد يخفى عند الحبيبين، ففي الصغر عندما كان جليلو يأخذ بيدها ويرقى معها إلى الشرفة المطلة على السهل الفسيح كان لا يشعر بدفء تلك اليد، وإنما دافعه الحرص على ألا تسقط أو تنزلق وهي ترقى

السلم إلى الشرفة لأنها ابنة عمه حاكم بصرى، وكان الشعور نفسه منها تجاهه، ولا غرابة في هذا فهو من باب دلال البنت الفطري الذي غرس فيها لتحبب بها الآخرين.. لكن الآن وبعد أن شبا وتجاوزا سن المراهقة وبلغا سن الاحتلام كان الأمر مغايراً تماماً، فما إن بدا لها تغيراً في جسدها وبروز أثدائها والميل لمداعبتهما بأناملها الملساء، أو بالنسيم الذي يعبث بثوبها الريفي الفضفاض فيغمرها شعور دافئ من اللحظات المحببة والإحساس باللذة الكامنة في الأعماق لهذا الحدث الجميل، إن جريها ولعبها وقفزها الآن مختلف عما كان، فالثديان الناهدان يهتزان والصدر يخفق لحركاتهما خفق الرضا بما يكون وكأنها قد اكتشفت حالة جديدة للذة ترضي الجسد لم تكن تعرفها من قبل، فتتساءل في صمت خجول:

ماذا حصل؟

وما هذا الذي يأتيني؟

وتجيب على تساؤلها.. لقد أصبحت شابة ناضجة مثل أمي وخالتي..

من هذه السن يبدأ العشق والغرام والهيام، وقد بدأت تدرك كيف تغيرت اللمسات عندما تكون يدها بيد ابن عمها، أهو يا ترى يحس بمثل ما تحس هي به؟

ماذا تغير به هو يا ترى؟

صحيح خُطَّ شارباه وطال عذاراه، سيصبح رجلاً مثل أبي وعمي، عندما أضع يدي بين يديه عليَّ أن أنظر في وجهه سأتبين مدى شعوره، أيحس هو بما أحس به؟

وانتظرت بفارغ الصبر على الشرفة تنتظر منه أن يصفّر لها فتنزل للجري والمرح معه، لم يطل انتظارها رغم أنها شعرت هي بطول الانتظار ومرت دقائقها كأنها ساعات، فنبهتها

من شرود الذهن صفرتُه المعهودة فهبت منتفضة وكأنها كانت في حلم اليقظان، فأسرعت نحوه، وما إن وصلت إليه وهي مسرعة على غير عادتها دون أن تكبح اندفاعها حتى تلقاها بصدره ليخفف من سرعة جريها خشية السقوط من تعثر طارئ يؤذيها؛ وكان التصاقاً لم يعهداه من قبل، وهنا شعرا بدفء العاطفة واتقاد الإحساس، ودفء اللمسة والميل الغريزي تجاه بعضهما بعضاً، ومرت لحظات وهما باتحاد روحي وجسدي وحب أشعل الجوى وزاد من خفقات قلبيهما وسرت موجات من الدفء بينهما، وخيم الصمت وانقطع الكلام وأصبح التعبير بالعاطفة وهمسات القلوب؛ فهي اللغة الأقرب لترجمة هذا الإحساس الغامر، فإذا كان اللسان قد عجز عن التعبير والتفسير؛ فإن القلب يفصح بلغة أخرى تسري بين القلب والقلب، هي ـ كما يقولون ـ لغة القلوب بأبجدية خاصة تُكتب ولا

تُقرأ، تماماً مثلما كانت من قبل هذه المرحلة لغة العيون تُقرأ ولا تُكتب، ولا تحتاج هاتان اللغتان إلى ترجمان، وكاد **جليلو** أن يُتْبع هذه اللحظة الدافئة واستسلام كل منهما للآخر بقبلة من لماها الورديتين لولا الخوف من نفرة الحبيب أو التمادي الجنوني في العشق قبل أوانه، فما زال الحبيب مراهقاً في بداية الطريق، وقد تعلم جليلو من مراقبته لطيور الحب لطف المناغمة وأناة الهيام والصبر على تأجيج الغرام، فقد يمضيان نهارهما بطوله وهما يحومان بعضهما حول بعض، أو يتنقَّلان من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى أخرى، ولولا أنهما يشعران في هذا باللذة وهدهدة الروح وتدفئة الحس واضطرام الغرام لما منعهما مانع من الإقدام والتعجل لما هو فوق ذلك، ولم يصلا بعد إلى ما كان يفعله أحد شعراء الأندلس بمن يهيم، عندما قال:

تسافر كلتا راحتي بجسمه

فطوراً إلى خَصر وطوراً إلى نهد

إنها فطرة الخالق في خلقه والسر الذي أودعه في الذكر والأنثى ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ إنه السكن والميل كلاهما للآخر، وكانت **جولي** ترى أن أسعد لحظات حياتها عندما يجلسان مساء في شرفة القصر ويتأملان النجوم وقد التصق كل منهما بالآخر وهما يشعران باندماج جسديهما وروحيهما معاً فأيديهما المتشابكتان طول الجلسة مع التأمل لا تكادان تفلتان حتى حين المغادرة مع آخر هزيع من الليل ليأوي كل منهما إلى مخدعه وكل منهما يحلم بالعودة في مساء اليوم التالي لجلسة أخرى ساحرة مع النجوم غالباً، أو مع القمر وهو بدر في أحيان أخرى.

كانت هذه من أحلى جلسات الخلوة والتأمل عندهما، أما في النهار، فكانت البساتين والمروج الربيعية مرتعهما ومتنزههما، ذكريات الطفولة تعيدهما نحو تلك الشجرة أو ذلك النبع أو الغدير، الجري وسط حقول القمح الخضراء الفسيحة ـ التي نمت وارتفعت لنصف قامتهما أو أكثر ـ وقد غاب شخصاهما فيها أو يكادان، وقد خالط القمح فيها بعضُ زهور الربيع المتنوعة، فتارة يهرولان بين شقائق النعمان وقد شهرت حقول بصرى بها، وتارة بين أقحوان المروج وزهرة النسرين، والزنبق البري وأغصان الخطمية التي اكتست بزهورها التي تجذب النحل والفراشات التي تعشق الرحيق الندي، وغيرها من الزهور التي يُجنى كثير منها في الربيع ويجفف لاستعماله في الشتاء كمشروب يريح النفس ويقاوم نزلات البرد والسعال، وكم أتعبهما الجري وراء نوع نادر من الفراشات الجميلة التي

كانت تداعبهما برشاقة وذكاء فطري، تحوم حولهما كأنما تغريهما بالإمساك بها، ولكن هيهات فعندما يجد الجد تطلق الفراشات لنفسها العنان وتزيد من سرعة الطيران، كأنها لم تكن هي التي كانت تتلكأ في طيرانها وتحط على الزهرات غير عابئة بمن يترصد بها، ثم تنتقل إلى أخرى كأنها تلهو فوق تلك الأزهار وقد يظن الصغار بها أنها تعبث وتلهو، فيقلدون لهوها وينسون أنها إنما تتغذى على أطيب زهرة بهذا الانتقال اللعوب وهي تجتهد في الاختيار، وتتلذذ بما في الزهور من رحيق طيب حلو المذاق.

هكذا كانت **جولي** مع ابن عمها وحبيبها **جليلو**، وكانا بانتظار أن يتفرغ أبواهما للاتفاق على إعلان خطوبتهما لإفساح المجال لهما لمزيد من الحب والتوق بعضهما لبعض واستمتاع كليهما بجوى الحب وأنفاس الحبيب، كان موعد الخطوبة قريب قريب، فكلا الأبوين متفقان

وكذلك الأمهات، وما إخلاء الجو لهما للقائهما ومرحهما وضحكهما وجدهما وعبثهما إلا للنية المبيتة للأهل أنهما عروسا المستقبل، فليستمتعا بوقتيهما قبل أن يحملا مسؤولية الحياة وبناء الأسرة الواعدة.

وفد توما في بصرى

وحضر وفد توما إلى بصرى محمّلاً بالهدايا النفيسة، فهي مرسال الإقناع وإغراء العروس بسعة رزق الزوج ووفرة غناه وأنها ستكون سعيدة هانئة في رغد من العيش والرفاهية، فكيف لو كان طالبها رجل دمشق القوي وزعيمها المبجل؟ فهي بهذا ستكون سيدة عظيمة بعظمة زوجها ولها من الأمر والنهي سلطان كبير.

كانت **جولي** لما حضر الوفد صباحاً على شرفة القصر تطل على البساتين والمروج الخضراء، وترقب الطيور التي هبت مع الصباح

الباكر تسعى للرزق، فقد طوت ليلها في هدوء وهي تغمض جفنها تارة وتفتحه أخرى، أحبت النوم والإخلاد إلى الراحة ولكن هذه ليلة قمراء فما كادت تعشش قبيل الغروب بقليل حتى تسلل إليها شعاع القمر مع بداية ظهور الشفق الغربي ثم بدأ يعلو ويشتد ضوؤه حتى كانت له الغلبة على كواكب السماء وانفرد بنوره الذهبي الأخاذ، وربما رآه شاعر ذلك العصر في هذا البهاء فعبر عن هذا المشهد بريشة الشعر الفنية:

بدرٌ يضيء الكونَ صفواً ما به
كدرٌ وهل نِدٌّ له من كوكب؟

وكانت بعض غيمات السماء تحجبه لفترة قصيرة من الوقت ثم يعود يسطع من جديد، فلم تنم في تلك الليلة الطيور؛ خصوصاً التي لم تحكم بناء أعشاشها فوق الأغصان، وما إن رأت خيوط الفجر وتحققت من قدوم النهار حتى هبت

مسرعة تسعى للرزق وهي تغالب النعاس وتحاول أن تكتحل بعبير البساتين لكي يتم لها الصحو وإبعاد الكرى عن جفنيها كي تجد في طلب العيش، وتعود لأعشاشها بطاناً بعد أن غادرتها خماصاً.

كل هذه المناظر كانت تعايشها **جولي** وهي تتأمل مسيرة الحياة من فوق شرفتها، وكم تاقت أن تكون واحدة من هذه الطيور لتسرح مع الحبيب في هذا الجو الفسيح ثم تنتقي شجرة وارفة الظلال طيبة العبير فتُكِنَّ فيها وتبني على أحد أغصانها عشها اللعوب، وتدعو صادحات الطيور لتغني لها أهازيج الفرح وعلى رأس هذه الطيور الكناري الأصفر المموه بريشات بيضاء تزين قوادمه.

وبينما هي في هذا الاستغراق الصباحي إذا بالجلبة أمام باب القصر فتنبهت فزعة ثم انتصبت بقامتها الهيفاء لتطل من شرفتها.. يا للعجب إنه

وفد ملوكي.. ما الأمر، وهنا رأت والدها وعمها وجمع من أعيان بصرى وقد اصطفوا لاستقبال هذا الوفد والترحيب به، أما هي فقد انتابها شعور بالقلق رغم أنها لاحظت ابتسامات المستقبلين للوفد وحرارة الترحيب به، إنه إحساس المرأة المرهف والقلب الشفيف الذي طبع الله به نجيبات النساء، ولكل مخلوق ميزة في بعض حواسه، هناك من يشعر بقدوم العواصف وآخرون باقتراب هطول المطر وآخرون باقتراب حدوث الزلازل، أما حال كثير من النساء المرهفات في الإحساس فلهن شعور بالمواقف التي تخصهن، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

نزلت جولي من الشرفة ودلفت بخفة وحذر من المجلس الذي نزل فيه الوفد لعلها تتبين أمر قدومه كعادة النساء في التنصت من خلف الأبواب، كانت لا تزال تسمع كلمات

الترحيب والثناء على حاكم دمشق **توما**، وكانت قد سمعت عنه من قبل كلاماً كثيراً لكن لم يرقَ يوماً إلى مجال اهتمامها، فقد كان يأسرها محيط بصرى بكل ما فيه ولا تتطلع لغيرها، فهي بنت بيئتها وهي أقرب بطبعها إلى الريف ولا تود عيش صخب المدن الكبيرة مثل دمشق أو حتى في أمِّ المعمورة القسطنطينية، وإن كانت تتطلع إلى زيارة هاتين المدينتين وغيرهما من المدن مثل روما التي كانت تأخذ حيزاً كبيراً من المدح الزائد أو الانبهار مما فيها من حضارة ينقلها المسافرون والرحالة إلى المدن الصغيرة؛ أو من روايات كان الناس يتداولونها في أحاديثهم مدحاً وإعجاباً بآثارها وعظمتها وما أشاعوه من عجائبها الباهرة.

وبينما هي في هذا الشرود الذهني إذ طرق سمعها ذكرُ اسمها، فَرَدَّ والدها باستغراب وتعجب: **جولي!** فقال رئيس الوفد:

مالك تتعجب؟

جولي نعم **جولي**.

أليس لك ابنة اسمها **جولي**؟

قال روماس: نعم، ابنتي **جولي**.

إذاً فلم التعجب يا روماس؟..

إنه حاكم الشام، وكأن في نغمة كلامه تهديد مبطّن، وهنا انتبه روماس ورأى أن الأمر جد، فقال للوفد:

إن تعجبي أن يصاهرنا الحاكم وأن يطلب يد ابنتي، وهذا شرف لنا ولكل سكان بصرى.

فقال كبير الوفد: إنه ليس زواجاً يا روماس.

إن توما ـ كما تعلم ـ صهر الملك هرقل ولا ينبغي أن يدخل زوجة عليها، إن **جولي** ستكون واحدة مهمة من محظيات القصر، وقد

ترتقي بذكائها إلى منزلة مهمة في القصر تفيدك كثيراً يا روماس.. وضحك أفراد البعثة بخبث.. ثم قدموا الهدايا، وقالوا:

سنبيت عندك ليلتين تجهز فيها ابنتك **جولي** لنصطحبها معنا، فلا تتأخر عن هذا الموعد.

أما **روماس** فقد ارتبك وبدا كأنه يكلم نفسه وهو يقول:

حاضر سنفعل ذلك.. سنفعل ذلك.

أما **جولي** فقد وقع الخبر على رأسها كالصاعقة ولفها دوار شديد ما لبثت أن سقطت مغشياً عليها، وقد كانت أمها في تلك اللحظة تقترب منها لكي تزجرها لوقوفها للتنصت في هذا المكان، وتريد أن تبعدها عنه، وإذا بها تفاجأ بسقوطها الشديد فانطلقت منها صرخة مدوية ارتج لها أرجاء القصر..

جولي.. جولي .. حبيبتي ما الأمر؟

وهُرِع إليها جمع ممن وصلهم صرخة الأم ومنهم روماس.

قالت أمها مخاطبة زوجها:

ابنتك يا روماس قد سمعت كل شيء.. حسرةً عليكِ يا ابنتي.

لكن روماس سارع بتهدئة الأم رغم اضطرابه الذي حاول إخفاءه.

لا تخافي يا **مريم** إن ما حدث لها كان من المفاجأة السعيدة، فذاك من شدة الفرح، قال ذلك أمام بعض رجال الوفد الذين هُرعوا معه ليتبينوا سبب الصرخة وما الذي حدث؟

وحُمِلت **جولي** إلى داخل المنزل وأحضِر لها الطبيب لإفاقتها من هول الصدمة.

عاد روماس ـ تاركاً مريم عند جولي ـ إلى ضيوفه ليطمئنهم بأن لا يشغلوا بالهم بما سمعوا وأن الأمر سينتهي إلى خير، وسيحصلون على ما

أرادوا في الوقت المحدد دون أي تأخير.

استفاقت **جولي** وهي تردد: كيف ذاك؟

كيف ذاك؟

أنا لا أريده ولو كان ملك الملوك.

أنا خلقت لابن عمي توأم روحي.

أنا لا أتصور أن أكون لرجل آخر كائناً من كان.

هدّأت الأم من انفعالها وحزنت لألمها ومآلها الذي لم تكن تتوقعه..

وتُردد: محظية لتوما!هكذا إذاً..

آه لحظك التعس يا ابنتي! تمتمت شفتاها بهذه الكلمات وعلى وجهها علامات الغضب، ثم قالت بحزم:

سأبذل قصارى جهدي لأقف معكِ وأكون إلى جانبك، والآن:

خفضي من صوتك لا ينتقل رفضك إلى الوفد، رفقاً بأبيك، وسنتدارك الأمر بالحكمة، أنا وأبوكِ، تقول هذا وهي تربّت على ظهرها.

أحضرت مريم لابنتها ماء الورد المنعش ليشد من فتور قلبها الذي أوهنه الخبر.. وبدل أن يجلب لها هذا الخبر الفرحة المتبوعة بالأهازيج والتهاني والولائم، إذا به يجلب لها الحزن والكمد، لكأنه مأتم ألقى بثقله على هذه الأسرة البائسة فأوجعها.

أما الوفد فقضى ليلتين بين تكريم وزيارات إلى المنشآت والبساتين التي اشتهرت بها بصرى، فطعموا من ثمارها وخضارها، وأعجبوا بجمالها الريفي أيما إعجاب؛ بالمسرح المقام فيها، حيث وقفوا على حسن بنائه وتصميمه وروعة هندسته، فهو نسخة مصغرة عن المسرح الكبير في روما مع اختلاف أحجار البناء وموادها بين المسرحين، فكل منهما وليد البيئة.

ما أسرع الأيام.. مر اليومان على الوفد سريعاً فهم في بحبوحة العيش ورغد التكريم والتبجيل، فالطعام المقدم لهم طيب فاخر والشراب منعش والفراش موطأ دافئ يغري الوسنان فليس في أعضاء الوفد مكابد أو مسهّد، وأيام الرخاء سريعة العدو خفيفة الظل، ولكن هذين اليومين كانا طويلين كابدت فيهما **جولي** ضروب الأسى والحزن فقد أسهرا مقلتيها فلم تتذوقا طعم النوم لا في ليل ولا في نهار، وفارقها الكرى حتى أنحل الجسم وأذوى بريق الوجه، ولم تعد **جولي** ـ التي أمامنا ـ الفراشة الزاهية الجميلة التي تداعب الزهور.. وتتنقل بين الأغصان.

أُعدت العربة الملكية والخيل القوية لرحلة تستغرق يومين، والوجهة دمشق، ومعهم تلك الغادة الجميلة **جولي**، أما الأم فقد اختنقت عبراتها في محاجرها وأخفت ما بها من ألم وثكل وهي تقول لابنتها:

رافقتك السلامة يا بنيتي.. وإلى لقاء، ثم مسحت بمنديلِ رأسِهَا ما فاض من دموع عينيها.

أما والدها فكان أقوى تماسكاً حيث أظهر شجاعة أمام الوفد وهو يودعها ويكلمها عن سعادة منتظرة في حمى **توما** العظيم، بينما كانت النار في جوفه تتوقد ولا يشعر أحد بضرامها سوى احمرار عينيه المتوقدتين كأنهما جمرتان من الغضب.

وانطلقت العربة مع خيول الوفد تلاحقها عيون الأبوين ودعاء متكرر:

فليحفظك الرب.. فليحفظك الرب.

و**جولي** شبه المختطفة قد استدارت للخلف وعيناها على والديها كأنها تلقي عليهما نظرة الوداع الأخيرة وهي تبتعد عنهما رويداً رويداً.

أخذ **روماس** بيد زوجته وهو يشد عليها

بقوة كأنما يستمد منها الثبات وقوة الصبر والاحتمال، وهو يقول لها:

أترى فقدنا ابنتنا الحبيبة الوحيدة؟

يا إلهي أسألك الصبر.. لكنّ قلبي يحدثني يا **مريم** أن أمراً ما سيحدث.

ردت الزوجة بخوف وقلق: ماذا؟

قال مهدّئاً من روعها: لا تخافي ولا يذهب خيالك بعيداً، كأني أرى أن هذا الأمر لن يتحقق، وأرجو من الرب أن يصيب توما بموت مفاجئ قبل أن تصل إليه ابنتنا.

فتجيب مريم: وأنا لا أريد إلا سلامة ابنتي وسعادتها.

أما **جولي** فبعد أن ابتعدت وفارق نظرها أبويها راحت في تفكير مضطرب يشوبه القلق، فتارة تفكر بالمجهول الذي ينتظرها؛ وتارة أخرى يلف بها شريط الذكريات مع حبيبها ابن عمها

جليلو فتعود بخيالها إلى وراء وراء، إلى الطفولة وهي تستدعي مشاهدها التي ما زالت مختزنة في الذاكرة..

سقطتُها على الأرض وابن عمها يُهرع إليها بلهفة المحب فيحملها إلى الغدير القريب فيغسل ما علق على يديها وركبتيها من طين.

ويوم أن قطفت وردة ولم تنتبه لشوكتها التي غرست حمّتها في أصبعها وسال منها الدم، فسارع **جليلو** إلى الإمساك بأصبعها، ولكي يخفف من ألمها لعق الدم ثم ضمدها بمنديل كان معه، فشعرت بعد ذلك بالراحة وزوال الألم.

وتذكرت أيضاً كلب الراعي الشرس الذي هاجمها يوم كانت تلبس الثوب الأحمر الزاهي، وكأن بين الكلب وبين هذا اللون عداوة متأصلة، فما كان من ابن عمها إلا أن هجم عليه بعصاً كانت معه فصده عنها، ثم ألقمه حجراً جعلته

يعوي بألم كأنها أصابت فمه، فولى مندحراً مذعوراً.

آه تذكرت؛ أو ذاك الحادث الذي كدت أقضي به نحبي وأفقد حياتي ـ وتمتمت: ليت ذلك حصل ـ يوم أن علق ثوبي وأنا فوق الشجرة حين أردت النزول فأصبحت معلقة في الهواء ورأسي مدلى إلى الأرض فسمع استغاثتي وصراخي لكأنه كان قربي وبلحظات أحضر حمار البستان ووقف على ظهره فوصل إليَّ وأنزلني سالمة.

كم ضحكنا يومها من حالتي بعد أن هدأ روعي، وحينما تخيلتُ حالتي كيف كنت معلقة بجذع لا يلبث أن ينكسر فأهوي من علٍ على الأرض؛ انتابني شعور خفي بالخوف فحمدت الرب أن سلمني على يد ابن عمي.

ويتداعى الخيال، ويمر في مخيلتها..

يوم المطر..

ويوم الثلج والبرَد.. كم كان يدفئها معه في فروته فتشعر معه بالأمان.

ثم تتنهد آه.. آه.. وتتحسر على فترة طفولتها وصباها أن تكون اليوم محظية ذلك الجبار ذي الوجه الصخري كما وصفوه لها.

وبينما هي مسترسلة في هذه الخواطر تعيش أحلام اليقظة بكل دقائقها وتفصيلاتها إذا بها تغط في نوم عميق وهي التي لم يغمض لها جفن منذ يومين خليا، وإذا بصوت أحد رجال الوفد المكلف بمرافقتها يقرع صندوق العربة، ويقول:

هنا محطتنا الأولى يا سيدتي، أفاقت من أحلامها مندهشة، ونظرت حولها فإذا هي في مكان لم تره من قبل، وقد مالت الشمس للغروب، فأنزلوها في استراحة هادئة وأفردوها

في غرفة أنيقة كي تستريح من عناء السفر، وتبيت ليلتها استعداداً للرحيل المبكر.

أما ابن عمها **جليلو** فلم يكن غائباً عما حدث لحبيبته، فكان يعتب تارة على عمه الذي فرط بها ليقدمها هدية **لتوما**، ويعذره تارة أخرى، فالرفض يعني الأذى لعمه وقد يعرضه للموت وفقدان مركزه، لكنه عارف وعلى يقين من حب **جولي** له، وأن قبولها **بتوما** كان تضحية منها لحفظ مركز والدها وتجنيبه الإهانة والأذى في مثل هذه السن، فقد شارف على الستين من عمره وعليها أن تحفظ له هيبته ووقاره،

ثم يقول ـ وهو يمتدحها من قبيل طمأنة نفسه ـ لقد عايشتُها زمناً وأعلم أنها فتاة ذات عقل وحسن تربية، ولهذا أحببتها، وما كان ينبغي عليها أن تفعل إلا هذا، ثم قال:

إنه قدري وعلي أن أتصرف..

ولكن كيف؟

كم تتوق نفسي لحمل السيف ومهاجمة الوفد وتقطيعهم إرْباً إربا، إما قاتل أو مقتول.

لكن هل أقوى على قتال ستة رجال لهم خبرتهم ومهارتهم في القتال؟

وهل يمكن أن أشكّل عصابة من زملائي لقهر هؤلاء؟

من سيستجيب لي ويقف ضد **توما** الشرس؟

لا وقت لكل ما أفكر فيه، أعلم أن الأمر خطير فما زالت خبرتي في القتال لا ترقى إلى مستوى هؤلاء الكبار، لقد علمني والدي التأني والصبر والحكمة في مثل هذه الأمور، والانفعال والتسرع لا يأتيان بخير وإلا سأفقد نفسي وأفقد حبيبتي ويضيع حلمي هباء تذروه الرياح.

لقد وزن **جليلو** الأمور بميزان الحكمة والعقل، وشرع في التخطيط لإنقاذ الحبيبة من

بين براثن الأسد الكاسر، وصمم على أنّ تنمية خبراته في القتال أمر ضروري لمستقبل الأيام.

ثم جالت في رأسه خطة بدأ ينسج خيوطها خطوة خطوة وينضجها على نار هادئة لاسترداد الحبيبة الأسيرة **جولي** .

ودع **جليلو** أهله وقال لهم: إني ذاهب إلى دمشق، أريد أن أقف على أخبار **جولي**، وأتأكد إن كانت ستعيش مسرورة عند **توما** أم لا، لقد خرجت من هنا وحيدة لم يرافقها أب أو أم كأنها إحدى سبايا روما، وهذا لا يعقل..

قالوا له: وماذا ستفعل أنت؟

لو اكتشف **توما** أمرَكَ سيكون عقابك شديداً.

رد بحزم: لا أبالي.. فليفعل ما يشاء، غير أني أعدكم أن أكون حذراً ولن يكتشف أمري، فهو لا يعرفني ولا حتى هؤلاء الذين أتوا

لأخذها فإنهم لم يروني، لأني لم أقابلهم ولم أجالسهم، والحمد لله أنني فعلت ذلك.

فقالوا: افعل ما بدا لك ولا تتأخر علينا بالعودة، فأنت ترى تقدمنا في العمر.. فنحن بحاجة إليك يا بني.. سيظل بالنا مشغولاً عليك.. رافقتك السلامة..

انطلق **جليلو** مع قافلة متجهة إلى دمشق وليس عليه سوى ملابسه ومدية كان يخفيها بحزام خاص بها تحت ملابسه ومعه بعض القطع الفضية والذهبية نفقة له، إنه يتذكر بعض ملامح مدينة دمشق فقد دخلها مرة واحدة مع أبيه وهو في السادسة من العمر ويعرف تاجراً فيها كان يتعامل مع والده.

كانت خطته أن يقصد ذلك التاجر ويعرّفه بنفسه عله يساعده أو يجد عنده مكاناً يأوي إليه، فبدأ يستذكر تلك الرحلة مع والده ويسترجع ما اختزنته ذاكرته عنها.

مكان الحانوت لذلك التاجر.

أما صورته فلا تزال واضحة في مخيلته، لأنه كان يمازحه ويداعبه ويعطيه الحلوى.

ثم بدأ يتذكر دمشق والطرقات التي عرفها في ذلك الحين، فهي كبيرة ليست كبصرى.

حفظُ أحيائها ودروبها من زيارة واحدة أمر صعب.

لكن لا تزال في ذاكرتي خيوط لم تنمح ستقودني إليه.

سأجده رغم أن الزمان في تغير مستمر، فما بين عشية وضحاها تتغير معالم كثيرة، ومن كان يظن أن تتغير أحوالنا في هذه الفترة الوجيزة؛ لقد اختطفوا مني **جولي** في يومين، فانقلبت حالنا إلى السوء سريعاً..

كانت قبل يومين بجانبي حبيبة مزهوّةً بجمالها تبادلني نظرات الحبيب الذي يفنى في

محبوبه، وأنا في غاية السعادة، كأنني عندما تكون بجانبي أملك الدنيا وما فيها..

أين هي الآن؟

غادرتنا والدموع قد جمدت في عينيها..

ذهبت إلى المجهول..

ترى هل يتبدل الحب بين المحبين سريعاً؟

هل يمكنها أن تنسى حبنا ثم تمنحه لذلك المتجبر **توما**؟

أم إنها ستظل وفية لحبنا؟

عندها ستعيش مأساة الفراق والألم، ولوعة فقد الحبيب، فيتأجج جوى الحب في القلب فتحرقه أو تميته، وفي كلا الحالين أنا وهي الخاسران..

ثم يعتصره الألم بتنهيدة قوية وزفرة مريرة.. آه.. آه.. أين كنا وكيف أصبحنا؟

وصول جولي إلى دمشق

ومضت ليلة في الطريق إلى دمشق، وما إن سمع الوفد صياح الديكة تؤذن بقدوم فجر جديد حتى هبوا من رقادهم وأسرجوا خيولهم ثم جهزوا العربة التي تقلُّ **جولي**، وفي هذه الأثناء كان صاحب النزل يجهز لهم طعام الإفطار، فأيقظوا **جولي** بأدب، ودعوها للاستعداد للسفر، ولما حضر الطعام أرسلوا لها وجبة شهية من الزبد والعسل والبيض مع رغيف من خبز القمح الحوراني الذي أنضج في تلك اللحظة في التنور.

دمعت عينا **جولي** لما رأت هذه المائدة وتذكرت مائدة والدتها المماثلة، فالمنطقة تتشابه في العادات والتقاليد وطعم الزاد، فهي وحدة جغرافية لا تتمايز في شيء، ومع الغصة وانسكاب الدمع تذوقت شيئاً من هذا الطعام الشهي الذي هجرته منذ أيام، فحزنها ما زال

المسيطر، وخوفها من المجهول يجعلها في توتر وشرود.

ثم أذن قائد الوفد بالرحيل وركبت **جولي** العربة وجد الموكب في السير تجاه دمشق يدفعهم إغراء الجائزة من **توما**، لأنهم حققوا رغبته، فها هي ذي محبوبته التي عشقها قبل أن يراها قادمة، وستكون عما قليل بين ذراعيه، لقد ظل هذا التفكير يراود كل أفراد الوفد بلا استثناء، كانت تسمع بين الحين والآخر من قائد العربة زجر الخيول لكي يحثها على الإسراع، فيجيبه البقية بحثّ خيولهم بمثل ذلك.

أما **توما** الذي حدد لهم مدة الذهاب والإياب والذي زودهم بعدد من الحمام الزاجل فقد كان على موعد مع قدوم الوفد ما بين العصر إلى المغرب من ذلك اليوم، فقد طيروا له زوجاً من الحمام صبيحة خروجهم من بصرى وأعلموه بأن محبوبته معهم وهي بالحفظ والصون، وها

هم الآن قبيل الانطلاق من المحطة الثانية يطلقون زوجاً آخر يخبرونه بانطلاقتهم وأن الركب بأحسن حال، فما كان من **توما** بعد هذه الأخبار إلا أن استعد مع جمع من الأعيان لاستقبال القادم الجميل، وظهر قصره بأحلى حلة، فأوقدت فيه الشموع لتضفي على القصر ألواناً من النور الأصفر والأرجواني، فيختلط دخان تلك الشموع المعطرة مع البخور والطيب والند، وعند باب توما أوقف لهم **توما** ثلة من الجنود لاستقبالهم بكامل السلاح الرومي الذي له بريق الذهب وقد عكسته شمس أصيل ذلك اليوم.

توقف الوفد عندما تراءت لهم أسوار دمشق من بعيد، وطلبوا من **جولي** تغيير ملابس السفر بملابس الديباج والطيلسان التي كانت بحقيبة العربة، وبعد مهلة من الوقت أراحوا فيها خيولهم، انطلقوا إلى دمشق وقصدوا باب **توما** الذي يوصلهم إلى قصره من أقرب الطرق، كما

أن **توما** يحب الدخول والخروج منه تفاؤلاً بطالعه، مع طرب يداخل سمعه عندما يذكر الناس الباب باسم **توما** ويردده منهم الداخل والخارج، ويود لو يبقى لآخر الدهر محتفظاً باسمه ليبقى ذكره ماثلاً في الأذهان بعيداً عن النسيان.

وصلت عربة **جولي** ودخلت من بوابة توما وهناك أحاط بها رجال الاستقبال ومشت أمامها ثلة من حرس الشرف، وخلفها ثلة أخرى، وما هي إلا دقائق معدودة حتى وصلت إلى باب القصر فدخلت منه وهي بأبهى حلة وأزهى زينة فاستقبلها **توما** ورحب بها وطبع قبلة عابرة على خدها كانت مفاجأة لها أذهلتها فاحمرت وجنتاها خجلاً وحياء، فهي لم تعتد على مثل ذلك الاستقبال والتقبيل من غريب، لكن ما بيدها حيلة.. إنه توما العظيم، ثم جلست في استراحة مع **توما** وقد تبين له في هذه الجلسة شدة

حيائها، وعلم أنها ليست كغيرها من الفتيات اللعوب اللائي يرتمين بأحضان الرجال، فحاول أن يخفف من غربتها وخجلها فسألها بلطف عن حال والدها، فأجابته بخير وعافية بكلام متهدج لا يكاد يسمع، فقلبها من الأعماق خائف وجل، فهي حاضرة بجسمها لا بروحها وتفكيرها، ثم انبرى يتكلم عن فضائل والدها وأنه محل ثقة الدولة والملك، ثم أمر الخادمة المخصصة لخدمتها أن تسير معها إلى محل إقامتها وأن تكون في خدمتها وتأمين راحتها.

كان هذا أحلى كلام سمعته لكي تنفرد بنفسها وتبتعد عن الجلوس المحرج معه، لأن قلبها لم يكن يتقبله ولا انشرح له، فخفت مسرعة مع الخادمة، وعينا **توما** تلاحقانها إلى أن توارت عن الأنظار في دهاليز القصر، فالجلسة هذه لا تكفي ولكن لا بأس طالما أن قلبه قد خفق لها فأيقظت في داخله إحساس الرجولة وجوى

العشق، ثم التفت **توما** إلى الوفد الذي أرسله وقال لهم:

لقد أديتم المهمة على أكمل وجه وعدتم بهذه الغادة الجميلة حقاً، فأنا راض عنكم وستنالون الجوائز السنية تقديراً لكم.

عاد **توما** بعد أن رآها إلى التفكير فيها بروية وتعقل، لقد اندفع برغبة التحدي يوم أن أمر بإحضارها وها هي ذي قد حضرت كأنها زهرة القرنفل في تطاولها وعنفوانها، ولا يهم ما يبدو عليها من الخجل، فقد ابتعدت عن أهلها وذكرياتها في بصرى، بيد أنها ستتورد وتشرق وجنتاها عندما **تتدمشق** وتستبدل صويحبات القصر بصويحباتها في بصرى، المهم أن والدها قد أرسلها بلا ممانعة وقدمها لي رغبة في مصاهرتي، ولكن ألم يقل له الوفد بأنها ستكون محظية لا زوجة؟ لا ضير هي الآن تحت جناحي وملك يميني، قد تكون لي زوجة في يوم من

الأيام، وبينما هو في هذا التفكير إذ ورد عليه مراسل الحدود الجنوبية والشرقية بأن عدداً من جيوش العرب بدأت تهاجم دولة الروم في سورية، فبعضها دخل فلسطين والأخرى توجهت نحو بصرى، فاهتم لهذا الأمر ودعا قادة الجيوش لاجتماع طارئ لبحث هذه الأنباء وما ينبغي فعله تجاهها.

وكان أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قد أعد أربعة جيوش للفتح في بلاد الشام، وكان قادة الجيوش الأربعة هم: أبو عبيدة بن الجراح، ووجهته إلى الجابية قرب دمشق، ويزيد بن أبي سفيان، ووجهته تبوك والبلقاء ثم يلتقي مع أبي عبيدة في الجابية، وعمرو بن العاص، ووجهته فلسطين والقدس، وشرحبيل بن حسنة، ووجهته إلى بصرى، كما أرسل خالد بن الوليد على رأس جيش كبير إلى العراق لقتال الفرس.

انطلقت الجيوش الأربعة بعضها إثر بعض

يفصل كل جيش عن الآخر مسيرة يومين أو ثلاثة، وكان أبو بكر رضي الله عنه كلما سير جيشاً سار معهم مودعاً وموصياً، كأنما يضع لهم منهجاً واضحاً للحرب لكي يلتزموا به، ويحمّلَهم رسالة الفتح بأن لا يخافوا من عدوهم مهما كان له من هيبة أو سلطان فيما مضى، لأن معهم رسالة يجب أن يبلغوها للناس ومن يحمل مثل هذه الرسالة فإن الله معه يؤيده وينصره، وتعد هذه الوصايا أدباً من آداب القتال، فهذه وصيته لعمرو بن العاص يقول له فيها:

اتق الله في سرك وعلانيتك، واستحيه في خلواتك، فإنه يراك في عملك، وقد رأيت تقدمتي لك على من هو أقدم منك سابقة، وأقدم حرمة، فكن من عمال الآخرة، وأرد بعملك وجه الله، وكن والداً لمن معك، وارفق بهم في السير، فإن فيهم أهل ضعف، والله ناصر دينه ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وإذا

سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار بها يزيد وأبي عبيدة وشرحبيل، بل اسلك طريق إيليا حتى تنتهي إلى أرض فلسطين، وابعث عيونك يأتوك بأخبار أبي عبيدة، فإن كان ظافراً بعدوه فكن أنت لقتال من في فلسطين، وإن كان يريد عسكراً فأنفذ إليه جيشاً في إثر جيش وقدم سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وسعيد بن خالد، وإياك أن تكون وانياً عما ندبتك إليه، وإياك والوهن أن تقول جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به، وقد رأيت يا عمرو ونحن في مواطن كثيرة ونحن نلاقي ما نلاقي من جموع المشركين ونحن في قلة من عدونا، ثم رأيت يوم حنين ما نصر الله عليهم، واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فأكرمهم واعرف حقهم، ولا تتطاول عليهم بسلطانك، ولا تداخلك نجدة الشيطان، فتقول: إنما ولاني أبو

بكر لأني خيرهم، وإياك وخداع النفس، وكن كأحدهم، وشاورهم فيما تريد من أمرك، والصلاة ثم الصلاة أذن بها إذا دخل وقتها ولا تصل صلاة إلا بأذان يسمعه أهل العسكر، ثم ابرز وصلّ بمن يرغب في الصلاة معك، فذلك أفضل له، ومن صلاها وحده أجزأته صلاته، واحذر من عدوك، وأمر أصحابك بالحرس، ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم، وأطل الجلوس بالليل على أصحابك، وأقم بينهم، واجلس معهم ولا تكشف أستار الناس، واتق الله إذا لاقيت العدو، وإذا وعظت أصحابك فأوجز، وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك، فالإمام ينفرد إلى الله تعالى فيما يعلمه وما يفعله، وإني قد وليتك على من قد مررت من العرب، فاجعل كل قبيلة على حميتها، وكن عليهم كالوالد الشفيق الرفيق، وتعاهد عسكرك في سيرك، وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك، واخلف على الناس من

ترضاه، وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك منك فخراً، وألزم أصحابك قراءة القرآن، وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها، فإن ذلك يورث العداوة بينهم، وأعرض عن زهرة الحياة الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك، وكن من الأئمة الممدوحين في القرآن إذ يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

شرحبيل بن حسنة يتوجه إلى بصرى

توجه شرحبيل بجيشه البالغ أربعة آلاف مقاتل إلى بصرى لفتحها، فلما وصلها وقف على أحد أبوابها، فلما رآه **روماس** استخف بعدد جنده، فجمع قواته واستعد للهجوم، ثم أوقفه شيئان:

الأول: أنه كان قد قرأ في الكتب المقدسة

عن هؤلاء المسلمين وأنهم سيفتحون هذه البلاد.

والثاني: ما حدث لابنته **جولي** وطلبها من قبل **توما** وأن ذلك قد أجج في صدره الحقد على **توما** والروم كافة، لذلك فكر بروية قبل الهجوم في أن يحاور الجيش القادم ليتأكد من مطالبهم وما يريدون من هذه البلاد، وهل هم فعلاً المذكورون في الكتب التي قرأها؟

حمل **روماس** راية بيضاء وأقبل يريد قائد المسلمين، فخرج إليه شرحبيل، وتم بينهما حوار هادف، اقتنع على إثره روماس بأنهم هم المقصودون في الكتب السماوية، وأسر تلك القناعة في نفسه دون أن يبدي ذلك لشرحبيل، لكنه طلب من شرحبيل العدول إلى غير بصرى وتركهم لكي يفكروا في الأمر جيداً.

قال شرحبيل: لا سبيل إلى فك الحصار إلا بواحدة من ثلاث:

الدخول في الإسلام.

أو القتال.

أو أن تعطوا الجزية.

وعندها يقع بيننا الصلح.

عاد **روماس** إلى قومه وأعلمهم بطلب القوم؛ وأن هؤلاء هم الذين قرأنا عنهم في الكتب المقدسة، وأرى أن نهادنهم وندفع لهم الجزية، فثاروا في وجهه، وقالوا نحن أكثر عدداً وأشد بأساً ولن تغلبنا هذه القلة، فإن كنت تخاف القوم فدعنا إذاً نقاتلهم نحن وتنح عن طريقنا.

قال: أنا واحد منكم، وما تقررونه نلتزم به، ثم فتح باب السور وخرج بعساكره إلى ظاهر بصرى ليتصدى للمهاجمين.

والتقى الجيشان بمعركة حامية، وصبر شرحبيل بمن معه، وطالت المعركة إلى ما بعد الظهيرة، فرفع شرحبيل كفيه إلى السماء وقال:

اللهم نصرك، يا رب، أنت القوي ولا غالب إلا الله، اللهم ثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

وأدت كثرة جيش بصرى إلى إحاطتهم بجند المسلمين؛ فكانوا أكثر من ثلاثة أضعافهم عدداً، بيد أن المسلمين صبروا وما وهنوا وما استكانوا، وما هي إلا ساعة حتى سمع جندُ المسلمين التكبير من بعيد ورأوا الغبار وقد علا في الجو، يا الله إنه المدد، لقد شاء الله أن يكون وصول خالد بن الوليد من العراق لمدد أهل الشام في تلك الساعة من هذه الطريق، وكان هو أيضاً قاصداً بصرى لحصارها، فشاء القدر أن يأتي في الوقت المناسب، وكان القتال بين الجيشين حامي الوطيس، فدخلت قوات خالد المعركة واشتبكت مع جند بصرى فاضطروهم إلى دخول مدينتهم والاحتماء بأسوارها تاركين وراءهم كثيراً من القتلى والجرحى.

حاصر المسلمون بصرى، وبالمقابل كان **روماس** يحاور أهل المدينة في الصلح وأن دفع الجزية خير لهم من خسارة البلد، وقال:

سأفاوضهم لنخرج بأقل الخسائر، وفي الصباح طلب **روماس** المفاوضات وكانت هذه المرة مع خالد بن الوليد، وهنا تأكد من أن هؤلاء القوم هم الذين عنتهم الكتب المقدسة، إن ما قرأه عن صفات قائدهم هي هي، وهنا انشرح قلبه في عرض الصلح، فصالحه خالد بن الوليد، وإثر ذلك أعلن **روماس** إسلامه أمام خالد ففرح المسلمون وكبروا ابتهاجاً بذلك.

انضم روماس إلى جند خالد ليتابع معه فتح الشام، وأسلمت **مريم** زوجة روماس أيضاً، ويروي الواقدي قصة إسلامها التي تحمل العجب، فقد رأت في الحلم النبي ﷺ كأنه البدر، فدعاها إلى الإسلام فأسلمت وعلمها سورتين من القرآن، وفي صبيحة ذلك الحلم كان

الصلح بين الفريقين وتسلّم المسلمون بصرى، فخرجت من باب بصرى وهي تقول:

أريد قائد المسلمين. فاجتمعت بخالد، وقصت قصتها وما رأته في الحلم، فقال لها خالد:

اقرئي الآيتين اللتين حفظتهما في الحلم.

فقرأتهما بطلاقة، ثم قالت:

أريد الذهاب معكم ولا أريد البقاء مع **روماس** لأنه لم يسلم، فضحك خالد لقولها، وقال لها:

لقد سبقك روماس إلى الإسلام، فتعجبت وتهلل وجهها، وقالت:

الحمد لله أن توافقنا على الإسلام فلم يخسر أحدنا الآخر، إن روماس رفيق عمري وسنكمل ما تبقى لنا من العمر معاً، ثم أردفت تقول:

سأرافقك يا روماس أينما تذهب، وكان سرور روماس أعظم لإسلام زوجته ومرافقته في الجهاد، فانتقل روماس وزوجته إلى جيش المسلمين تاركين بصرى إلى حين، لعلهما يشهدان فتح دمشق على أيدي المسلمين ويعملان على إنقاذ ابنتهما من **توما** الرهيب، ويعودان - إن كتبت لهم الحياة - إلى بصرى التي أحباها للإقامة فيها.

جليلو في دمشق

دخل جليلو دمشق وقصد التاجر **إيليا** فكان متجره كما عهده لم يتغير ولم يتبد،ل بيد أن إيليا قد ارتسمت على وجهه ملامح الشيخوخة وثقلت حركته ولم تعد عنده المقدرة الكافية على إدارة المتجر والتعامل مع الزبائن بحيوية ونشاط كما كان من قبل، فتقلصت تجارته واكتفى بما تبقى من حانوته من بضاعة تناقص عدد أصنافها،

فاقترب جليلو من إيليا وحياه فرد التحية بفتور، إنه منهك من العمل وبالكاد يلبي طلبات الزبائن، فبادر جليلو وقال:

كأنك لم تعرفني!فوجّه إيليا نظره إليه ليتأكد من شخصه، ثم قال:

هذا صحيح.. يبدو أنك غريب، فمن أنت؟

قال جليلو: عمي **روماس** حاكم بصرى، فانتفض من مكانه واستوى قائماً، وقال:

أنت ابن أخ **روماس**!

قال: نعم، فرحب إيليا به بحرارة، وقال له:

ادن يا بني، كيف حال عمك وأبيك؟

قال: بخير.

قال: فما الذي أحضرك إلى دمشق وحيداً؟

قال: أردت أن أزورها وأتعرف على معالمها وأقطن فيها قليلاً، فأنا لم أزرها منذ وقت طويل.

قال **إيليا**: أصبت، فأنت ضيفي من الآن طيلة مكثك في دمشق، فوالدك صديقي الحميم، وبيتي كبير ولم يعد يقيم معي سوى زوجتي.

أبنائي الإناث تزوجن.

وابني **هانس** انتقل إلى روما عضواً في مجلس الشيوخ، فقد أصبح من أبرز البارعين في القانون.

قال جليلو: أقيم عندك إذا أذنت لي أن أساعدك تماماً كابنك، فقد تقدم بك العمر ولا أريد أن أشق عليك في أمر ضيافتي ولا على زوجتك، وإلا ذهبت إلى النزل، لأن والدي أوصاني أن أزورك وأسلم عليك عند وصولي إلى دمشق، وها أنا ذا أفعل ذلك.

رد **إيليا**: ليس من الشهامة أن يعمل الضيف عند المضيف، ولكن لأنك ابن صديقي العزيز وأريدك قربي فلا بأس.. وكما تريد.

وهكذا ضمن **جليلو** المبيت المناسب خصوصاً وأن حانوت إيليا في حي توما ومنه يستطلع خبر جولي فلا تغيب عنه.

تعرف جليلو من خلال إقامته عند إيليا على كثير من معالم دمشق خلال أيام قليلة وخبر طرقاتها وأزقتها ودروبها جيداً، ثم تعرف على عدد من الناس في المتجر كانوا قريبين من قصر **توما**، ومنهم كانت تصله أخبار القصر وما يدور فيه من أحداث بارزة، ومنها نتف تتسرب عن لسانهم ـ زلات لسان عابرة ـ تذكر **جولي**، فيتماسك كي لا تظهر عليه ملامح التأثر أو الاهتمام بها، خصوصاً عندما يذكرون أنها:

كثيرة الاعتلال من يوم وصولها.

وأن هواء دمشق لم يناسب ابنة الريف الجميلة.

وأنها تذوي كما تذوي الوردة عند انفصالها عن غصنها الندي.. ويقولون:

إن **توما** دائم القلق عليها وينتظر بفارغ الصبر تحسن حالتها ليقيم لها حفل تعارف ساهر ويعلن انضمامها إلى محظياته لكي تأخذ وضعها كمحبوبة له في القصر، وقد لاحظ عليه كبار القوم أنه قد وقع في غرامها، ونالت حيزاً كبيراً من وقته وتفكيره، وما من طبيب أو كاهن إلا وقد استقدمه لمعالجتها؛ فحالتها الصحية والنفسية غير مرضية.

وفي أحد لقاءات **جليلو** مع هؤلاء القريبين من القصر علم أنه بعد ليال ثلاث ستكون ليلة **جولي** مع توما، وأنه سيقيم لها حفلاً كبيراً لتحسن حالتها الصحية والنفسية ويشعرها بأنها

ذات مكانة في القصر ومحل اهتمام وتقدير، ثم يعلن عن حبه لها واصطفائها لتكون من خاصته، وبعد ذلك تقيم معه تلك الليلة فيخصها بحبه وغرامه.

شهق جليلو شهقة عالية ـ عندما ذكروا عبارة يقيم معها تلك الليلة ـ انتبه لها الجلساء، ولكنه برر حاله هذه متمنياً أنه لو يستطيع حضور مثل هذه الحفلات الممتعة لكان في غاية السعادة.

قال أحدهم: يمكنك أن ترافقنا إلى الحفل فتشهده معنا.

قال **جليلو**: وهل أنتم من المقربين إلى توما؟

قال **سلفيو**: نحن نعمل في الخدمة بالمطبخ نغسل الأواني، ولكن هناك نافذة تطل على قاعة الحفل يمكنك أن ترى منها الحفل وأن تسمع ما

يدور في البهو، ومنها نرى ونسمع ما يدور في الحفل دون عناء.

وبلا تردد قال لهم **جليلو**: يكفيني هذا ولكم شكري، سأعمل معكم وأساعدكم لقاء ذلك، فأنا أحب مشاهدة مثل هذه الحفلات.

وهكذا تم الاتفاق معهم على أن يصطحبوه في تلك الليلة، وعندما حان الموعد أتوه باللباس الخاص الذي يميزهم ثم اصطحبوه معهم كواحد منهم، ولما بدؤوا العمل بإعداد أواني الحفل لتكون على درجة عالية من النظافة؛ عمل معهم بجد ونشاط مظهراً لهم فرحه وجزيل شكره أن أحضروه لمشاهدة هذا الحفل الكبير، وكان كلما عمل قليلاً أسرع إلى النافذة ليطل على القاعة، وفي كل مرة يرجع بفتور لأنه لم يشاهد **جولي**، وإنما كان يرى الغانيات يرحبن بالضيوف والقادة بغنج ودلّ واهتزاز أرداف، وقد برزت النهود من فتحة الصدر الواسعة كأنهن رمانات بصرى عند

النضج حين يثقلن ويتدلين من الأغصان اللينة فيعلو الغصن بهن وينخفض باهتزاز رتيب مع هبات نسيم الصباح؛ وقد أغواه المرور عليهن ومداعبتهن فاسترسل متناغماً في هباته لسويعات بلا فتور، ومن بعد إيصال الضيوف إلى المقاعد المخصصة لهم؛ يجلسن معهم ويتباسطن بالحديث والمزاح مع تبادل القبلات والضحكات التي تخالط أنغام قيثارة كبيرة تعزف عليها أنامل امرأة متوسطة العمر وقد تزينت بالحلي ولبست ثياباً مزركشة غريبة تميزت بها، وهذه الثياب تعد من الفولكلور الروماني الخاص بالعازفات عُرفن به منذ زمن، وقد اصطف من خلفها أربعة فتيات قد لبسن الشفيف من الثياب وأبدين صفحة عريضة من الصدر إلى أطراف النهدين يغنين بصوت ناعم يؤنسن فيه الحضور، ولهذا المنظر اللافت في قصور المترفين في دمشق اشرأبت عنق جليلو ليطل من الكوة وقد بهره ما رأى

محاولاً تبين وجوههن على ضوء الشموع المتمايسة، فيظهرهن بوضوح للحظات ثم يغادرهن النور للحظات، وهو غير وانٍ ولا متعب، دؤوب التردد إلى الكوة يندفع إليها بالعقل الباطن وفي حالة اللاشعور، ولما كثر تردده ترك العمل والتصق بالكوة و تسمّر في إطارها يدقق النظر ويتحرى الوجوه؛ ورفاقه ينظرون إليه وهم يبتسمون ويتغامزون ولسان حالهم يقول:

لقد انبهر صديقنا بالحفل وانشدَّ إليه كأنه لم ير حفلاً كهذا من قبل في مدى عمره، وهم لا يدرون أنه ابن القصور أيضاً ولكنّ هواه وفكره في أمر آخر، والسرُّ الذي حضر من أجله دفين في الصدر لا يبوح به لمخلوق الآن، ثم عاد ليساعدهم قليلاً وفكره هناك عبر الكوة عند **جولي** التي قد تكون على مقربة منه، لذلك كلما حركه الشوق لها عاد إلى النافذة تاركاً ما تعهد لهم به

من المساعدة عن غير قصد منه، وهم يعذرونه ويتمنون له السرور والمتعة بما يرى.

لم يطل هذه المرة انتظاره فقد خرج **توما** ومعه الغادة الحسناء **جولي** وقد زينتها مزينات القصر فغدت كوكباً دريّاً جذب إليه أنظار الحفل فما كان منهم إلا أن استقبلوهما بالتصفيق وعبارات الإعجاب والانبهار، وقال أحدهم يسارّ الآخر بصوت خفيض ليهنأ **توما** بهذه الغادة الرائعة، لقد فاقت وضاءتها بدر السماء، ثم جلست مع توما على كرسي مرتفع كبير... أما **جليلو** فقد خفق قلبه وتوترت أعصابه وقطّب جبينه وتمنى لو تسقط تلك الشموع على رأس توما فتحرقه، وفي هذه الأثناء تغير نغم القيثارة والعزف والإنشاد إلى طبقة أعلى وأسرع إيقاعاً كأنما هي للترحيب بكبير القوم توما، وإيذاناً للمحتفين بالنهوض وقوفاً وترداد الترحيب، ثم جلس توما مع جولي جنباً إلى جنب على كرسي

ضخم، وأطلق المسك والبخور وأبخرة الند وعطر الورد، ثم تغير العزف مرة أخرى، فأمسك كل واحد منهم بغادة وتشابكت الأيدي بالأيدي، وقام الجميع يرقصون ويتمايلون، ودارت الخمرة في الرؤوس وهام الرجال بالنساء، واختلط بعضهم ببعض، وترنح من ترنح واستراح من لم يقو على الرقص لمدة أطول، وتبادلوا الأدوار مع الراقصات وهن في غاية النشاط والمرح فقد كن أولات تجربة واستعداد لمثل هذه الحفلات، غير أن شيئاً ما حدث فأوقف الحفل وهو في أوج نشاطه غناء وهرجاً ونشوة خمر ونساء، لقد دخل الحفل أحدُ القادة الكبار المدجج بالسلاح وهو من خاصة توما ليبلغه رسالة شفهية سرّية، تغير لها وجه توما وقلق بشأنها، فرفع يديه إيذاناً بإيقاف الحفل والدعوة لأخذ قسط من الراحة لأن الطعام جاهز، فصفق بيديه وطلب على وجه السرعة تقديم الطعام، وقد أصيب الحاضرون

بالدهشة لهذا التصرف من **توما**، وتوجهت إليه أنظار الضيوف كأنما يريدون منه أن يقول لهم شيئاً يبرر فيه سبب اختصار الحفل على غير العادة، وعرف **توما** ما يدور في الأذهان فأشار إلى العازفة أن توقف العزف ثم قال: أيها السادة حدث أمر لم أكن أتوقعه، كلكم سمع عن دخول جيش قليل العدد من العرب إلى بلادنا، وقد وجهت إليهم قائدي **وردان** ليبيدهم عن آخرهم في أجنادين، لكنّ فرقة منهم تسللت باتجاه دمشق وأرهبت الناس ولم أتوقع أن تصل بهم الجرأة إلى التوغل في بلادنا، وقد نزلوا في الجابية كأنما يظنون أن دمشق لقمة سائغة لهم، أو من السهل اقتحامها، فهي قلعة الصمود ودونها أنهار الدماء؛ لهذا اختصرت الحفل فلا تشغلوا بالكم لقد جاؤوا إلى الموت بأقدامهم، ولن أرحمهم لجرأتهم على دخول بلادنا وتعكير صفو ليلتنا هذه، وسأتفرغ لقتالهم وأريهم من هو **توما**

وسأعوضكم عن هذه الليلة بليلات أُخَرَ تخدمنا فيها السبايا من نسائهم، فضج الحاضرون فرحاً وبطراً وتصفيقاً، وهم يأملون بحفلة أخرى في العاجل القريب.

سمع **جليلو** كلام توما وبالرغم من أنه لم يفهمه كثيراً ولم يدرك حقيقة الأمر ومن هم هؤلاء العرب الذين ذكرهم، إنما كان سروره كبيراً لتعطيل الحفل والتنغيص على **توما** وأنه قد أتاه ما يشغله عن **جولي**.

وبعد انتهاء الحفل ومساعدة الأصدقاء في ترتيب كل شيء في مكانه.

شكر جليلو أصدقاءه ثم غادر القصر وعاد إلى مسكنه عند **إيليا**، وبدأ يفكر ملياً في ما سمعه من **توما** ومن أمر هؤلاء الذين نزلوا قرب دمشق يريدون غزوها، ودارت في رأسه خواطر كثيرة عن الغزاة ومصير **جولي** إذا ما اقتحم هؤلاء

دمشق ودخلوا القصر، وعندما أوى إلى فراشه راودت **جليلو** هواجسُ كثيرة وأحلام ورؤى اختلط بعضها ببعض جعلت جليلو يثرثر أثناء نومه بكلام يكاد يكون مفهوماً لمن يسمعه، وربما لم تكن هي المرة الأولى التي تنتابه هذه الهواجس؛ لكنها كانت الأشد تأثيراً عليه.

أيقظت هذه الثرثرة بصوتها المرتفع إيليا الذي يسمعه للمرة الرابعة أو الخامسة خلال سكناه معه، ولكن هذه المرة زاد عما اعتاد سماعه منه.

إنه يذكر بوضوح وهو نائم اسم **جولي** والوحش وتوما... والقصر، فأشفق عليه وقال:

لا بد من سر ذي أهمية يختزنه صدر **جليلو**، ولابد من مكاشفته بما يتكلم به في نومه، فأيقظه متذرعاً أن النوم قد جفاه، ويريد أن يجلس معه يسامره، وقد أحضر معه إبريقاً من

مشروب ساخن يطرد لسعة برد ليل دمشق، ثم استجرّه في الحديث وأخبره ما سمع منه أثناء نومه، وقال:

تعرف منزلتك عندي وقد أحببتك مثل أولادي فلا تخفِ عني شيئاً من أسرارك، لعلي أستطيع أن أقدم لك العون؛ إن لم يكن بقوتي فبعقلي وتدبيري، وقد خبرت الحياة وعلمتني التجارب شيئاً كثيراً.

رد جليلو: أنا أثق بك أيها العم إيليا، لكني لم أشأ أن أشغلك بقضيتي، فأنا نفسي أتيت إلى هنا ولم تكن لدي خطة واضحة في تنفيذها، وربما يعتمد مسعاي على الصدفة أو الحظ، فقد أنجح وقد أخفق، ثم قص عليه قصته كاملة مع **جولي** وكيف أخذها منه توما، ثم انتبه فجأة من استرساله في الحديث كي لا يكون أفضى بشيء لا يسر **إيليا**، فقال مستدركاً:

هل أنت ممن يحب توما؟

نظر إليه إيليا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مع حركة فيها إشارة من السخط.

وهل هنا أحد يحب توما؟

حتى الذين حوله في القصر يدارونه لينتفعوا منه ولا يحبونه.

صلف، متكبر، متجبر، يرى نفسه فوق كل الخلق، لا تقلق يا جليلو، سأكون إلى جانبك وسأفكر معك بطريقة لاستعادة **جولي** من براثن هذا الطاغية...

وفي الصباح، كانت الشائعات قد انتشرت حول قدوم العرب لحصار دمشق.

فقال جليلو مستفسراً من إيليا عن هذا الموضوع، وكان **إيليا** مثل كثير من الذين اهتموا بالكتب المقدسة يتداولون القصص عن النبي

المنتظر الذي يظهر آخر الزمان؛ صاحب الرسالة التي تحمل الخير والمحبة والعدل والمساواة لكل العالمين، وقد انتظرته الأجيال تلو الأجيال لينعموا بهذه القيم التي يشتاقها كل إنسان محب لها، ولكن يا ترى هل هذا هو زمان قدومه، هؤلاء القوم القادمون الذين يبشرون بهذه المبادئ، فإن طبقوها قولاً وعملاً فهم أهل الحق لا ريب فيه.

قال **جليلو**: ما أحوجنا إلى هذه المبادئ، وكيف نعرف ذلك منهم؟

تبسم إيليا وقال: أنتم أهل هذه الأسرة ممن فتن بالنبي المنتظر، لطالما درّس عمُّك حاكمُ بصرى خبره وصفاته، وكان متابعاً لكل كتاب أو خبر ذكر هذا النبي الخاتم، وما أظنه الآن إن كان هؤلاء القادمون على حق وأنهم من أتباع هذا النبي الخاتم؛ إلا أن يكون قد عرفهم وأيدهم والتحق بهم.

رد **جليلو**: تذكرت الآن، لقد كان عمي فعلاً يتكلم عن هذا الأمر بين حين وآخر ونحن الشباب لم يكن يهمنا أن نسمع مثل هذه الأخبار وكنا نظنها ضرباً من خيال توهمه الأقدمون ونسجوه ليشغلوا به الناس، أو ليحذروا بقدومه الحكام كيلا يجوروا، وكنا نعده نوعاً من كثير من النبوءات المزيفة التي تظهر بين الحين والآخر ثم تتلاشى لبطلانها ودجل حامليها، فلم نعد لهذا ندري صحة الحديث الذي نسمعه من بطلانه، وهل سيتحقق ذلك أم لا؟ فعالمنا نحن الشباب يختلف عن عالم آبائنا، وتفكيرنا مختلف عن تفكيرهم.. إنما منذ الآن سيأخذ هذا الأمر حيزاً في تفكيري، وهو أمر مهم وخطير.

أجاب إيليا: هذا صحيح لكن لو ظهر الحق، وكان هذا أوانه، فإنه لن يخفى على كل ذي عينين وكل ذي فكر سليم.

قال **جليلو**: وأذكر أن عند عمي كثيراً من

الكتب القديمة التي تَبَحّر في قراءتها، فأصبح عالماً نحريراً لكثرة ما حصّل من أخبار أو جمع من علوم، فكان يجلس للناس بعد العصر في بصرى فيحدثهم عمن مضى من الأنبياء وعن النبي الخاتم الذي اقترب موعده، وكان كثيراً ما يأتيه الزائرون ليسألوه عن مثل هذه الأمور المغيبة وزمان حدوثها.

عاد **جليلو** إلى غرفته ليقلب الأمور ويفكر بجد بهؤلاء القادمين، أيكون إنقاذ **جولي** من توما على أيديهم يا ترى؟ من سيخبرهم بقصتنا، إذا كانوا يقيمون العدل، فالعدل أن يعيدوا **جولي** إلى أهلها، ثم يخيرونها في مَن تحب ومن تريد أن تكون له زوجة، ثم شد عصابة على رأسه وهو يقول:

آه.. رأسي يؤلمني من التفكير، أدعو الرب أن يساعدني.

حصار دمشق

بعد سلسلة من معارك المسلمين الظافرة مع الروم ودحرهم في معركة اليرموك الفاصلة تقدمت الجيوش الإسلامية إلى دمشق، كان قائد الجيش العام أبو عبيدة بن الجراح، حيث حظي ـ لسابقته في الإسلام وورعه وعزوفه عن الدنيا وحبه للآخرة ـ بحب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي تولى الخلافة بعد وفاة الصديق رضي الله عنه، فعزل خالد بن الوليد وعين مكانه أبا عبيدة بن الجراح، وذلك لكثرة الألسن التي تناولت خالد بن الوليد رضي الله عنه بالمديح والإعجاب به؛ لما قام به من انتصارات ساحقة في ميادين القتال، على جبهتي الفرس والروم، وظهرت عبقريته القتالية للتخطيط للمعارك الصغيرة والكبيرة، فهو بحق سيف من سيوف الله، هكذا لقبه رسول الله ﷺ، وكان الشرف العظيم أن يكون

كذلك، فلم تهزم له راية في كافة المعارك التي خاضها، فخشي عمر بن الخطاب من أن يفتتن المسلمون به، وأن يظنوا أن النصر بعبقرية خالد، وينسوا رب خالد الذي هيّأ أسباب النصر لهم ومكنهم في الأرض؛ لأنهم يحملون الرسالة الخالدة للشعوب لنشرها وتبليغ مبادئ الإسلام السامية التي تحمل العدل وتكره الظلم والعبودية للعبيد، وتبشر بالعبودية الحقة لله تعالى وحده، وأنهم ـ أي المسلمين ـ لا يريدون لقاء ذلك أجراً أو جزاء من أحد ولا مدحاً ولا شكورا، وإنما غايتهم رضوان الله تعالى ونيلُ ثوابه وجناته، فهذا الجيل المجاهد من الصحابة والتابعين هم المؤتمنون على هذه الرسالة التي تشربوا روحها من ملازمتهم للنبي ﷺ، ولهذا فلا يتأثر أحدهم إن كان في موقع القيادة أو الجندية، لأن مطلبه الجهاد في سبيل الله، ومعنى هذا أنه لا يجاهد من أجل

دنيا يصيبها، ولا منصب لإمارة أو ملك يناله، ولا مال ليَشْرُف به، ولا إرضاء لفلان أو فلان، وقد أخبرهم النبي ﷺ:

«**أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» وأن من قاتل ليقال عنه شجاع أو في سبيل دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهو في سبيل ما قاتل من أجله، فيحبط من أجل ذلك جهاده ويضيع ثوابه، لذلك لما جاء عزل خالد بن الوليد وتولية أبي عبيدة لم يتأثر بذلك خالد بن الوليد؛ بل قال:

السمع والطاعة لأمير المؤمنين ولمن ولاه علينا، ثم انتظم تحت قيادة أبي عبيدة وأتمر بأمره بعد أن كان أبو عبيدة يأتمر بأمر خالد، فهم كلهم سواء قائد ومقود، ولولا أن النظام يحتاج إلى قائد لما رضي أحد من الصحابة المقاتلين أن يكون القائد، ولكنه النظام ولوازم الحياة، حتى إن النبي ﷺ أمر إن كان هناك ثلاثة

يخرجون معاً في سفر أن يختاروا من بينهم أميراً، فكيف بالجيوش؟ فالأمر أوجب، وكذلك الأمر في قيادة الناس وإدارة شؤونهم، وهذا الأمر أيضاً استوجب إقامة الحاكم أو الخليفة أو الملك أو الرئيس أو الأمير ليحملوا عبء هذه المسؤولية والأمانة.

خطة الحصار

لما وصلت جيوش المسلمين إلى دمشق طلب أبو عبيدة من خالد بن الوليد أن يعد خطة حربية تتفتق عنها عبقريته في إحكام الحصار على دمشق ذات الأبواب المتعددة، فجال جولة حول دمشق وتفقد أبوابها وأشرف على أسوارها وهو يقلب الأمور عسكرياً وتفتق هذا الفكر عن وضع خطة محكمة لحصار دمشق، فأقبل إلى الجيوش وقد اجتمعت على بعد ميل من دمشق، فقال لأبي عبيدة:

- امض بمن معك من الجند وانزل على باب الجابية، ولتكن متباعداً عن الباب واحذر غدر القوم ومكرهم أن يفاجئوكم بغارة أو يأخذوكم على حين غرة، وقاتلهم إن هاجموك بفوج إثر فوج، وبهذا لا ترهق جندك.

ثم استدعى يزيد بن أبي سفيان وقال له:

- امض بمن معك وانزل على الباب الصغير، فإن هاجموك بجيش لا قبل لك به فاطلب منا المدد.

ثم استدعى شرحبيل بن حسنة وقال له:

- انزل بمن معك على باب توما وأوصاه بمثل ما أوصى به يزيد.

ثم استدعى عمرو بن العاص، وقال له:

- انزل بمن معك على باب الفراديس.

واستدعى قيس بن هبيرة وقال له:

- انزل بمن معك على باب الفرج.

ثم استدعى ضرار بن الأزور، وقال له:

- أنت أمير على ألفين من الفرسان وعليك بالطواف حول أسوار دمشق وأن تكون جاهزاً لمد يد العون عند طلب النجدة.

- وكان نصيب خالد بن الوليد أن يقيم بجيشه على الباب الشرقي.

حال دمشق

لما وقف توما على الوضع العسكري للمسلمين استخف بهذه الحشود، وقال لكبار قادته: لقد جاؤوا إلى حتفهم وسوف أفاجئهم بحرب لم يعهدوها، فما زال عندي آلاف الجنود، والأسلحة الكثيرة القوية، وخزائن التموين والمواد الغذائية وافرة، وهؤلاء الحفاة

العراة إن لم نقتلهم نحن فبرد الشام كفيل بالقضاء على معظمهم، وسيحل قريباً، ثم وزع قواته على الأبواب، وقال للقادة:

سنخرج عليهم من باب توما أولاً فنقاتلهم ساعة ثم ننسحب ونغلق الباب.

ثم نفتح بعدها باب الجابية، ونفعل كما فعلنا على باب توما.

وهكذا سنشغلهم يومهم وليلهم، وسأرتب لكم التوقيت وأعطي إشارة البدء غداً مع أول خيوط الفجر، ثم إنه اختلط بالناس الذين خافوا وارتبكوا وأيقنوا الهلاك لهذا الحصار الذي لم يعرفوه منذ زمن طويل وهم مقيمون بالشام بأمن ومنعة وقوة، فطمأنهم توما بأن جيوش الملك هرقل لا تبالي بهؤلاء وسوف تبيدهم عن آخرهم وتلاحقهم إلى ديارهم كيلا يتجرؤوا على غزونا مرة أخرى، وسمح لهم بالإطلال من فوق

الأسوار ليريهم ضعف المهاجمين وقلة إمكاناتهم.

خرج **جليلو** ليطل مع الناس، فرأى المسلمين وقد نظموا صفوفهم وأحاطوا بأسوار دمشق إحاطة السوار بالمعصم، وقد ابتعدوا قليلاً عنها بحيث لا تصلهم سهام الروم، لكن كان يصله من معسكر المسلمين أصوات التكبير والتهليل التي أخافت الروم ونزلت على أسماعهم كالصواعق، وهذا دليل يقظة المسلمين، بيد أن جليلو لم يكن ليخرج مع الناس لمجرد النظر إلى جيوش المسلمين؛ بل كان يقلب فكره في تأمل للوضع والاستفادة من هذا الحصار في تحقيق ما جاء من أجله، وهو إنقاذ الحبيب من براثن توما، فكأنما وجد أن قدوم هؤلاء القوم قد يساعد في إنقاذ **جولي**، وأمل أن يهديه تفكيره إلى اتخاذ القرار الصحيح في التعامل مع هذه الظاهرة، وتذكر من خلال تفكيره وتقليبه للأمور

عمه **روماس** وما كان عليه من دوام تذكير الناس عن قرب حدوث أخبار بات وقوعها وشيكاً ستغير من واقع المنطقة كثيراً، ويتساءل إن كان عمه يقول ذلك عن قناعة ويقين، فهل التقى يا ترى يهؤلاء القوم في بصرى فأيدهم؟

أم إن هؤلاء المسلمين لم يكونوا هم المقصودين فأنكرهم ودعا لصدهم وقتالهم؟

وما أخبار بصرى؟

أيكون هؤلاء قد دخلوها واحتلوها ثم قدموا إلى دمشق؟

أم إنهم تركوا بقية المدن وقصدوا دمشق بالذات؟

لابد لي من تقصي أخبارهم، وعلي أن أراقب ما يحدث.

وهل ينفذ **توما** تهديده بإبادتهم؟

أم إنهم هم الذين سيقضون عليه؟

وما مصيري إن دخل هؤلاء دمشق؟

وما مصير **جولي**؟

خصوصاً إذا عرفوا أنها من محظيات توما، فربما تكون محظية لأحدهم، وتتعقد الأمور وتتشابك الخيوط.

يا إلهي ماذا أفعل؟

عاد **جليلو** إلى مكان سكناه شارداً حزيناً يجر قدميه جراً، وقد أثقل رأسه التفكير والجهل بالمصير، ولاحظ **إيليا** تغير جليلو؛ وأن الكآبة تعلو محياه وقد كان من قبل مشرق الوجه باسم الثغر ترى على محيّاه زهور الربيع وبراعم الأمل التي تبدأ تتفتح لنهار مشرق جميل، فما باله يا ترى يذوي ويذبل؟

ما الذي أصابه؟

وسأله عن حاله أولاً، ثم قال له:

أكدرتك أخبار زحف المسلمين؟

لا تخف، لو أنك سألت عمك عنهم لما حزنت هذا الحزن، إن الظلم الذي وقع من الحكام هنا كبير، وإن الظالم له نهاية، والله يسلط عبيده بعضهم على بعض ليذهب في النهاية بالظالم، فالمال الكثير بأيدي الحكام ينفقون منه كيفما يشاؤون، وهم لا يبالون بالآخرين من شعوبهم، أسعدوا في هذه الحياة أم شقوا؟ أشبعوا يومهم هذا أم جاعوا؟

أما هم؛ أرأيت حفلاتهم والبذخ والإسراف والذهب والفضة والأواني واللباس؟

طبقة لا تهتم بالناس، فإن كان هؤلاء الغزاة هم أصحاب النبي الخاتم الذي ظهر في بلاد العرب فاطمئن إلى عدالتهم، ولن يصيبنا منهم الأذى، إنما خصمهم هؤلاء الحكام، وسوف ترى ما أقول، فأزل عنك الهمَّ وأرني بسمتك.. وتعال معي لنتناول الطعام.

وفي أثناء تناول الطعام عرف جليلو من **إيليا** كثيراً عن المسلمين من خلال ما سمعه إيليا من بعض الرهبان الذين قرؤوا الكتاب المقدس وما أتى به الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام، وخرج جليلو بعد ذلك وقد تبدل حزنه فرحاً، وكآبته انشراحاً، وتشاؤمه فألاً، وبدأ يفكر بأمر ما.. أخفاه في نفسه.

المعارك حول الأسوار

كانت الأوامر من قائد جيوش المسلمين بأن يتقدم شرحبيل بن حسنة باتجاه باب توما، وبهذا تكون القيادة قد وضعت هذا الصحابي القائد أما أخطر الأبواب، فتوما لن يرضى بأن تسقط دمشق من هذا الباب مهما كلفه الأمر من البذل والتضحية، وسيكون سبة في التاريخ إن حصل هذا، فسيضيع مجده وما قدمه للامبراطورية الرومانية من قبل حين شارك هرقل

المعارك الطاحنة ضد الفرس، ولهذا حرص على زيادة القوة الدفاعية عند هذا الباب، ثم أقبل توما ـ من باب التفاؤل ـ من هذا الباب بادئاً به حملته العسكرية ضد المسلمين، فخرج في أبهة الملك وتفاخر السلطان، وقد أحاط نفسه بالقادة والجند ولبس ثياب القتال الرومانية التي تضفي على لابسيها نوعاً من المهابة العسكرية؛ من فخامة الدرع والقلنسوة المتميزة بريشها الملون وهي خاصة بكبار القادة، وقد تمنطق بالسيف وحمل الرمح وتقلد القوس والنشاب، مع بريق تلك الأدوات التي تدل على براعة صانعيها وقوة الدولة التي تستعملها وهذه عدة المحارب الرومي الكاملة، ثم قدم أمامه الصليب الأعظم الذي اعتادوا تقديمه أمامهم في الحروب الكبيرة المهمة، ثم أشرف من فوق البرج على ساحة القتال التي تجمّع فيها المسلمون وهو يظهر عظمة الدولة وقواتها المنظمة والمدججة بالسلاح، ثم

رطن بالرومية كأنما يهدد ويتوعد، وهنا أمر شرحبيل جنده بالاقتراب والرمي بالنشاب، لكن توما كان رميه أشد، فهو في برج محصن وقد جمع فيه آلة الحرب، فكان رمي الروم للمسلمين بالسهام أشد غزارة، فكل رشقة كانت تأتي من قبل الروم هي أشبه بالجراد المنتشر، ولكن المسلمين كانوا يتّقونها بالتروس، وكان للروم منجنيقات ترمي الحجارة وكانت أشد خطراً على المسلمين من السهام لأنها لا تُتّقى بترس إلا أن يزيغ عنها الجندي أو يحتمي منها بدبابة خشبية منيعة عندما يسمع أزيز الحجر أو صفيره عند انطلاقته، وهو يطير في الهواء بسرعة فائقة تدل على قوة المنجنيق الذي يقذفه، فهو يهشم من يصيبه ويفجر الهامات إن سقط عليها.

قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالاً شديداً لكن دون إحراز تأثير يذكر بالروم، وقد أصيب نتيجة هذه المعركة عدد من جنود المسلمين بين

قتيل وجريح، ومنهم أبان بن سعيد بن العاص، أصيب بسهم مسموم وقد أحس بلهيب السم في بدنه، فكان راميه **توما**، لأنه لا يرمي بمثل هذه السهام إلا كبار القوم، وكان ظنهم أن توما هو ذلك الرامي، وقد قضى أبان نحبه من هذا السهم، وكان حديث عرس، فقد تزوج بعد انتصار المسلمين في معركة أجنادين ولم يمض على انتصار أجنادين سوى نصف شهر، وعروسه **سلمى** كانت مع النساء اللائي يخدمن في جيش المسلمين ويجهزن لهم الطعام والماء ومداواة الجرحى، فوصلها خبر استشهاد زوجها، فاسترجعت واحتسبته لله، وانطلقت إلى حيث نقل زوجها لتلقي عليه نظرة الوداع الأخير، فمعاشرتها له لم تكن إلا لأيام معدودة، لكن صورته محفورة في الذاكرة فهو ابن عمها ورفيقها الذي أحبته، وقد كان كالغصن الناضر آية في الجمال، فانعكس جماله على حسن خلقه وتدينه

فجمع ميزة جمال الظاهر والباطن، فلما وصلت إليه وكشفت عن وجهه لتلقي عليه نظرة الوداع رأت قمراً مسجى مشوباً بصفرة من أثر السم، فلم تزد أن قالت:

إنا لله وإنا إليه راجعون، وتجاوبت عيناها مع الحزن الدفين في الصدر دون إرادة منها، وسكبت وابلاً من الدموع الزكية فوق جبينه، وهي تقول:

رحمك الله أبا سعيد.. فقد كنت مقاتلاً شجاعاً أبليت في أجنادين حتى بهرت الأعداء بصبرك وإقدامك، وها أنت تموت اليوم شهيداً مقبلاً غير مدبر فالإصابة في صدرك، ولقد لبيت نداء الله للجهاد حين نادى اللّهُ الذين آمنوا في كتابه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥] ثم دعت

له بالرحمة والمغفرة وهي صابرة على مصابها، وعادت إلى خيمة النساء وهي تفكر بأن تثأر لزوجها، فكان لا بد لها من مقارعة الأعداء، ورغم أن أثر خضاب الحناء كان لا يزال جديداً يصبغ كفيها بلون الأرجوان؛ وأنها فتية شابة من ذوات الخدور إلا أنها صممت أن تقاتل بنفسها وتنتقم ممن قتله، وكانت عربية الأرومة والمحتد تجيد القتال والرمي بالسهام، وقالت:

سأذيق الأعداء طعم سهام المسلمين.

فاشتغلت يومها وهي تريش السهام وتبري رأسها وتضع فيها السن الحديدي الذي أتقنت شحذه ليكون نافذاً حتى في الدروع، وبدأت تستعيد قوة ساعديها بتدريبات عهدتها منذ فتوتها، وقد لاحظ النسوة أنها تعد العدة للمشاركة في المعارك، فقلن لها:

إن في المسلمين كفاية وأنت هنا معنا في

جهاد، فأبق على حياتك ولا تغامري بها، ولعل الله أن يرزقك من أبان ولداً، فاصبري ولا تتعجلي.

لكنها أبت إلا السير على خطا زوجها وحبيبها **أبان**، فما كان من زميلاتها ـ بعد إصرارها ـ إلا المساعدة في تجهيزها والدعاء لها بالنصر والتأييد من الله.

ولما تيسر لها القوة والتمرس نهضت بعزم وقوة وتوجهت إلى ساحة المعركة لا يُرى منها إلا حدق عينيها النجلاوين، فالتقت بالمقربين من زوجها وسألتهم مستفسرة إن كانوا قد شاهدوا غريمها الذي أصاب زوجها؟

فقال أحدهم: أنا رأيته، إنه كبيرهم وقائدهم **توما**، وهذا سهمه الذي أصاب به زوجك إنه مميز ويطلق منه توما بين حين وآخر، ولم يطل حديثها معهم، فها هو ذا باب توما

يفتح وهذا إيذان بغارة رومية جديدة، فتدفقت منه خيل الروم وعلى رأسهم توما ودارت رحى معركة عنيفة، ما لبث توما أن انسحب عائداً خلف الأسوار، ولسرعة المعركة التي انتهجها توما بأن يضرب بسرعة ثم ينسحب بسرعة ليرهق بذلك جيش المسلمين، لم تستطع **سلمى** تسديد سهامها نحوه، إذ كان هدفاً متحركاً ومحاطاً بكوكبة من فرسان الروم، لكنها ميزته وحفظته فلن تخطئه في المرة القادمة، وتذرعت بالصبر ورأت أن منيته لم تحن بعد؛ وانتظرت عودته على أحر من الجمر وهي في شدة وغليان، وقد دعت ربها ألا يفلت منها مرة ثانية، وأن تتهيأ لها الفرصة السانحة لملاقاته، وبينما هي سارحة في تفكيرها وتعد الخطط للمواجهة مع توما مترقبة ظهوره بين لحظة وأخرى إذا بالقدر يعجل في ظهوره فلما دخل خلف الأسوار صعد إلى البرج المطل على ساحة المعركة لينظر ما أحدثته غارته، فعاد المسلمون

لمناوشته بالسهام وناوشهم بالمقابل جنده، فقال لسلمى أحد أصدقاء زوجها:

هذا هو توما قد برز في البرج وهو بملابسه العسكرية ودروعه القوية ولا سبيل لسهمك إلا إلى وجهه.

فأجابت: لا يهم، سأجعل سهمي بين عينيه بإذن الله، فلما صوبت سهمها، ظهر أمام سهمها عقبة ثانية، حيث قدم توما أمامه حامل الصليب الأعظم، وكان يقدمه أمامه في الحالات الحرجة والمعارك الكبيرة متقرباً به إلى الرب باعتقاده، ولهذا الصليب قدسية تاريخية وعقدية، فلا يحمله إلا صاحب رتبة كنسية عليا وهو مختص بخدمته والعناية به، وقد رصع هذا الصليب بنفيس الجوهر مع إطار من الذهب، فكان بريقه كالشمس في رابعة النهار، قال صديق الزوج لسلمى:

إن كنت بارعة في التصويب فدونك الرجل، فقالت: وبالله المستعان، ثم وضعت السهم في القوس وشدت الوتر بقوة وهي تقول بسم الله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) يا الله خذ بثأري من هذا العلج المتغطرس، وأطلقت سهماً كأنه شهاب سماوي مرسل، وكان توما في حديث مع حامل الصليب الذي قرب أذنه من توما ليسمع ما يقوله له، فجاء السهم في صدغه، فقالت:

يا الله أرادتُ توما وأردت يا إلهي حامل الصليب، فانفجر دماغه وسقط الصليب من يده على جدار السور ثم هوى خارج السور، ولما رأى المسلمون ما حدث كبروا وتدافعوا نحو الصليب لحيازته إليهم، لكن توما الذاهل من هول الصدمة نحى حامل الصليب القتيل جانباً وصرخ بالجند:

احموا صليبكم، صرخات كررها مرات

بهستيرية وجنون، فصوب جند الروم السهام والحجارة على المهاجمين، وبالمقابل صرخ شرحبيل بالمسلمين أن يقدموا ساتراً من النبال لإخوانهم تمكنهم من حيازة الصليب، فاشتعلت معركة بالسهام، ثم تترس المسلمون بالتروس وتقدموا إلى الصليب فأخذوه وعادوا سريعاً إلى شرحبيل وسلموه الصليب، لقد حرص المسلمون على أخذ الصليب لا لأنه من نفيس الجوهر الذي لا يقدر بثمن، وإنما لأن في أخذه إحباط وتثبيط للخصم، فهم يعتقدون أنهم به ينصرون، فإذا ما أخذ منهم اضطربت نفوسهم وحبط تدبيرهم وسقط هذا العامل المنشّط الذي كان يدفعهم إلى الاستبسال، وهذا في نظر المسلمين أول الخذلان للعدو؛ والضعف الذي يفل من عزيمتهم.

لقد شاركت سلمى بالرمي وأصابت عدداً من جنود الروم، بيد أن غريمها لا يزال حراً

يأمر وينهى، وفي هذه الأثناء أعطى توما أمره بفتح الباب للقتال واستعادة الصليب بأي ثمن، وإلا فالعقاب الذي سينتظرهم من الملك هرقل سيكون شديداً، إنها العقيدة، وقد فرط بها توما، لذلك انطلق توما يقاتل المسلمين في كوكبة من الفرسان الذين اندفعوا بحماسة لم تعهد من قبل، إنها المحاماة عن الصليب، فالمعركة مقدسة والموت في سبيلها مطلب المتدينين.

تقدم توما مباشرة إلى شرحبيل ورطن بالرومية:

أن خلّ عن الصليب وإلا فالموت الزؤام، فرمى شرحبيل الصليب من يده وتصدى لتوما في مبارزة تطاير منها الشرر، وهنا كانت **سلمى** تتابع توما وتتقدم باتجاهه دونما خوف من الموت أو من الفرسان الذين يحامون عنه والموكلون بحمايته، فلم تبال بهم وعيناها على **توما** ولهيب

المعركة محتدم أو كما قال عليه الصلاة والسلام في غزوة حنين:

«**الآن حمي الوطيس**» فصوبت سهمها تلقاء صدغه وأطلقته بشدة فكان نافذاً من بين الجند وله أزيز ارتعد منه المحامون عن توما بلي رؤوسهم، وإذا به يدق عين توما اليمنى ويستقر فيها، فصرخ توما من الألم صرخة دوت لها ساحة القتال، فكبر المسلمون وكبرت معهم **سلمى**، فقد أصيب رأس القوم بعينه وها هو السهم بارز للعيان، فلما رآه جنده على هذه الحال أسرعوا إلى جواده فأخذوا زمامه وانطلقوا به حتى واروه خلف الأسوار، ولم يُجْدِ هجومه نفعاً في استعادته الصليب، وبات في همين، عينه التي ذهبت وخسارة الصليب الأعظم الذي هو حوزة المسلمين.

قال أصدقاء أبان: لقد نصرك الله يا سلمى

وفزت بالثأر من القاتل، فإن لم يمت منها فقد أحدثت فيه عاهة في أغلى ما لديه.

وفي قصر توما هُرِع الأطباء لعلاجه فحاولوا نزع السهم من عينه فلم يفلحوا، وكلما شدوه ليخرجوه صاح بقوة من شدة الألم، ثم سقوه الشراب لتخفيف الألم ولكن دون جدوى، وبعد مداولة فيما بينهم استقر رأيهم على قطع العود وترك السهم الحديدي في عينه، وداووه بما عندهم من خبرة في الطب على أن يلتزم الفراش لأيام.

وهكذا أصبح توما بعين واحدة، وبهذا شغل أيضاً بعطبها عن **جولي** التي أظهرت تجاهه توجعاً وألماً، وربما أحس من داخله أن ما يلقاه من مصائب قد يكون بسبب ظلمه لها وتعديه على استلالها من بين أهلها تلبية لنزوة عابرة.. فها هي الآن وقد انقضى على قدومها ثلاثة أشهر وهي كما جاءت من بصرى لم يقربها ولم يرو

منها نهمه الجنسي الذي تأجج يوم ذكروها له حتى الآن، فاستلقى موجعاً؛ لكنه كان يعيد في ذاكرته شريط إحضار **جولي** وربما عنف نفسه لهذه الدناءة التي جعلته يقتلعها من بيت أبيها، وربما أسخط هذا الفعل والدها فكان إرسالها إليه خوف العقاب.

أكيد ودون شك، لقد خاف أبوها من سطوتي، فتوسل بالإنجيل ألا أهنأ بها ولعل هذا سر النحس الذي لازمني من يوم أن قدِمتُ من بصرى ـ بهذا حدث نفسه وشعر بخطأ طلبها ـ وبدأ يفكر في أمرها ملياً، أيعيدها إلى أبيها ويتخلص من النحس الذي جلبه لقصره بيده أم يمسكها معه؟

أين سأجد أباها وقد بلغني أن بصرى أصبحت تحت حكم المسلمين؟

ولو سقطت دمشق بأيدي المسلمين؟

أأتركها وأنجو بنفسي؟

لا.. سأهرب بها إلى القسطنطينية..

لن أتخلى عنها.. أصبحت ملكي.. نعم.. أبداً لن أتخلى عنها.

قال هذا بعد أن أقنع نفسه بأن ما حدث ليس مرتبطاً بقدومها، فهو شر عم البلاد وهجوم لهؤلاء الأعراب صادف قدومَ **جولي**.

إنه لا يزال مفتتناً بها ومن الصعب عليه تركها، وليكن ما يكون من أمور.

روماس في خضم الأحداث

لم يكن روماس بعيداً عن الأحداث التي حصلت على باب توما، فقد كان شاهد عيان عليها كلها بل كان المترجم لشرحبيل ينقل له ما يتكلم به الروم، فهو يجيد الرومية والعربية والسريانية، ومن حين أن أسلم وانضم إلى جيش

المسلمين حارب معهم في عدة مواقع أبلى فيها بلاء حسناً، فكان كل قائد من قادة المسلمين يود أن يكون روماس بين صفوف جيشه لما له من خبرة عسكرية ومعرفة بمسالك البلاد ودروبها، لكن لما اقتربت جيوش المسلمين من دمشق اختار **روماس** أن يكون مع جيش شرحبيل وذلك حين وزع خالد بن الوليد الجيوش على الأبواب، وكان من نصيب شرحبيل باب توما، فاختار روماس هذا الباب وفي نيته الالتقاء مع ابنته جولي وتخليصها من براثن توما، وقد تنكر روماس بالزي العربي فلم يستطع أحد أن يميزه عن العرب خصوصاً عندما طالت لحيته وملأت وجهه بكثافتها وتموج لونها بين شعر اشتعل شيباً وسواد خالطها لا يزال عصياً على الاشتعال، فالملابس العربية التي ارتداها أظهرته أنه ابن الصحراء ومن نبتها المتجذّر فيها، وحتى لغته فقد غيب النطق بالرومية إلى أجل غير مسمى، لذلك

لما أطل **جليلو** على ساحة المعركة يرقب جيش المسلمين ويتفحصهم بدقة متناهية لم يلحظ عمه من بينهم، لذلك كان جليلو ينتقل بين الوقوف على أسوار باب توما وأسوار الباب الشرقي، فهناك القائد خالد بن الوليد وهناك المعارك الكبيرة أيضاً والتخطيط لتسلق الأسوار، فالمسلمون يجهزون السلالم والحبال لاقتحام المدينة التي أبى أهلها الاستسلام ودفع الجزية حقناً لدمائهم، لكن لو أخذت المدينة عنوة فالأمر مختلف جداً سيخضعون لشروط الفاتح مهما كانت الشروط قاسية، لذلك كان الحل المناسب للمدن التي لا تجيد الدفاع عن نفسها أن تقبل بالجزية، فهي تمثل رحمة الإسلام بالأمم، وليست بالباهظة، إنما هي دريهمات معدودة يدفعها كل فرد بالغ عن نفسه في السنة لقاء صون دمه وماله وعرضه، وتتيح له الوقت الكافي للنظر في الإسلام وتعاليمه عن قرب من

خلال مخالطته للمسلمين، فإذا ما علم أنه دين الله الحق ـ وتحققت لديه القناعة في الدخول في الإسلام، وإنقاذ نفسه من التيه والضلال، وتاق لشراء آخرته بدنياه، بأن امتلأت نفسه بنور الإيمان، وانزاح عنه كابوس الظلمات، وقارن بين ما كان فيه من دين وهذا الدين الجديد، وحصلت القناعة عنده واليقين ـ أعلن إسلامه؛ فإن الجزية ستسقط عنه ويصبح هو وبقية المسلمين في الحقوق والواجبات سواء.

جولي في حيرة وقلق مما يحدث

لم يكن ما يحدث حول دمشق مغيباً عن **جولي** فهي الفتاة الذكية التي تفهم الأحداث وتقرأ ما في عيني **توما** وما يحمله من هم وقلق، لكنها تفتعل عدم فهمها أو اكتراثها لما يجري في الخارج وتتجاهل ما يحدث من معارك وحصار لدمشق، كأنها في غير هذه المدينة، وتُظهر أنها

تعيش في عالم آخر، وأنها فتاة صغيرة لا شأن لها بهذه الأمور التي تخص الحاكم وقادة الجيوش، فلازمت الصمت ولم تسأل أحداً عما يحدث في هذه المدينة وما حولها؛ رغم أنها ترى القلق بادياً على هيئات الرجال والنساء، وتقرؤه في عيون من تراهم ممن حولها مهما تصنعوا في إخفائه، فهم لم يكونوا كذلك حين قدمت إلى دمشق، لقد كثرت همسات الغانيات والمحظيات فيما بينهن، وتعلم بالتأكيد أن هذه الهمسات هي عما يجري في الخارج، لكنها أشعرت المحيطين بها أن كل همها المرح والملابس والموسيقى، وهي رابطة الجأش كتومة لا تظهر شيئاً مما في داخلها كيلا يسخط توما عليها، وعندها لن يتورع عن إنزال العقاب بها، إنها تراه قلقاً يتعذب، وتتمنى له المزيد، وسرها حبيس صدرها، ولن تبوح بمكنونه، فهي لا تستطيع أن تقول له:

إن ما تلاقيه من همّ وأحزان وقلق نفسي هو بسبب ظلمك واعتدائك؟

ولا تجرؤ أن تقول له:

لقد حرمني جشعُك وحبك لتملك النساء وشهواتك الدنيئة من حلم عمري الذي وطدت نفسي على الحياة معه؟

وتتأوه بحسرة.. كم في داخلي من كلمات حبيسة الصدر تؤلمني وأود لو أقولها لتوما.

لو ذكرتُ أمامه حبي لابن عمي لسوغ له الظلم الذي يعشش في رأسه قتله، هو طاغية وأي طاغية! ولو عرفت فيه النصفة لأبحت له بهذا السر ليرأف بحالي وحاله، ولكان آثر هذا الحب الطاهر على لذاته الدنيئة؛ فيحررني من إساره واستئثاره.

وكونه حاكماً للبلاد؛ يمكنه أن يجعل من هذه القصة الغرامية الطاهرة ـ التي أعيشها مع

جليلو ـ نبراساً للمملكة يشجع على أمثالها، بل ويقيم لي ولابن عمي حفلا كبيراً للزواج صوناً لهذا الحب النظيف؛ فيصبح قانوناً في الدولة للعاشقين أمثالنا بدل الانفلات الجنسي الذي فاحت رائحته في الدولة مما هو في الحانات وفي قصور توما وأمثاله، لكن هيهات، هيهات أن أسارّك يا توما بما في نفسي وما يعتلج في خاطري، والخير لي أن أبقى على تجاهلي بالأحداث، وأظل أخفي اهتمامي ومتابعتي لما يجري، وأنا سعيدة بما يجري رغم جهلي بعاقبة هذا الأمر، أهو لي أم علي؟

إنني أتمنى من أعماقي وقرارة نفسي أن تنصبَّ شرور الدنيا فوق رأس توما.

إنه اليوم بعين واحدة وما يدريني ماذا سيصاب به في غد؟

قد تقتلع عينه الأخرى فيصبح أعمى القلب والبصر.

لطالما صليت في خلواتي ودعوت الرب أن يعاقبه.

وسأبقى كذلك إلى أن يأتيني يوم الخلاص.

أما هؤلاء الغزاة الذين ظهروا فجأة بعد قدومي إلى دمشق فلا أدري من هم؟

وما دينهم؟

وماذا يريدون؟

أيكون فرجي على أيديهم؟

أم إنني سأخرج من حفرة لأسقط بحفرة أكبر منها!

سأكون مستعدة لكل حادث.

ولن أستسلم لأحد.

وسأراقب ما يحدث عن كثب لأتخذ في الوقت المناسب القرار الصحيح.

ثم تعود لتتذكر والدها ووالدتها فيرتسم على محياها الحزن وتسكب بعض الدموع التي تدفقت بعفوية الحنان والشوق وهيجان الذكرى واستيقاظها الذي لا يفارق جفنيها.

فهي الآن أشد ما تكون احتياجاً لهما والعيش في كنفهما.

أين والدي الآن أهو حي يرزق أم فارق الدنيا فلم أعد أراه؟

وأين والدتي؟

كم أنا بحاجة إلى صدرها الدافئ وحنانها الذي يواسي جراحي لألقي عليه رأسي كما كنت أفعل دائماً عندما يداهمني حزن أو ألم.

يا إلهي كم تباعدنا فهل إلى اجتماع من سبيل؟

وتتذكر.. وتتذكر.. وتنهمر الدموع وليس لها إلا الوسادة لتلقي فوقها رأسها المتصدع مما

هي فيه، إنها صغيرة على تحمل مثل هذا التيه، وحيدة على مجابهة الأخطار، ثم تذهب بعد جهد في نوم عميق لعلها تفيق على انفراج يعيد لها الأمل المرتجى.

على الباب الشرقي

لم يكن الوضع الحربي على الباب الشرقي بأقل اشتعالاً منه على باب توما، فلما وصل وفد شرحبيل إلى خالد بن الوليد يطلب منه المدد لأن توما ركز الحرب تجاهه، قال لهم خالد: كل منا مشغول بما يلاقيه من هذه الأبواب، وهذه الليلة أحتاج فيها للرجال، فقد صمم خالد بن الوليد على تسلق الأسوار في هذه الليلة ليفتح دمشق عنوة، فلا أمل في الصلح بوجود توما، وقد أعد رجاله السلالم والحبال ولكن في مكان أخفاه عن أعين الراصدين من الروم، وفي المساء في ليلة لا يظهر فيها القمر إلا بعد منتصف الليل لأنه

ابن تسع عشرة ليلة، وقد تغشت في هذه الليلة السماء بطبقة من الغيوم حجبت نجوم السماء وكواكبها، فلا يرى فيها السالك شيئاً مهما أوتي من النظر الحديد، أمر خالد جنده المكلفون بصعود الأسوار وهم الذين عاينوها لعدة أيام وعرفوا أين يضعون السلالم لصعودها، ودرسوا الدرب الذي سيسلكونه إليها فحفظوه في مخيلتهم فأغناهم ذلك عن رؤية الطريق عياناً في تلك الليلة، وقد شمروا عن ساعد الجد وتقدموا بحرص زائد على ألا يجلبوا صوتاً ولا يحدثوا حركة كي لا يتنبه إليهم الحراس، ولما تقدم الكشافة ليستطلعوا لهم الطريق ويمدوا الحبال التي ترسم لهم خط السير ليلاً فيسيروا معها إلى الغاية المنشودة، إذا بالكشافة يكتشفون أمراً خلف الباب، إنه تجمع وحشد للروم وقد عزموا هم أيضاً على مباغتة المسلمين في هذه الليلة، فعادوا سراعاً ليخبروا خالداً، وعلى الفور اتخذ

موقف الدفاع والصد ثم المطاردة لعله يسبقهم إلى الأبواب فيأخذها عليهم قبل أن يغلقوها، واتخذوا كلمة للسر كي يعرف بعضهم بعضاً في عتمة الليل «منصورون» وألغى عملية تسلق الأسوار، وقال:

قد ندخلها من بابها بإذن الله.

وما إن أتم خالد تعبئة جيشه حتى سمعوا صوت صرير الباب يفتح واندفع الروم بفرسانهم تجاه المسلمين وهم يرطنون بالرومية يشجع بعضهم بعضاً، فإذا بخيلهم تصطدم بحائط صد للمسلمين غرسوه بالرماح العوالي والمتاريس فكسروا به حدة الهجمة الرومية، وتنادى المسلمون إلى الصبر وقتال العدو وشعارهم «منصورون» فكانت المفاجأة والصدمة على الروم الذين لم يتوقعوها فشعروا بالخذلان وأن تخطيطهم قد فشل، فالمسلمون متيقظون لا غافلون كما ظنوا، وقد داخل الروم أن أحداً ما

سرّب للمسلمين خطة الهجوم وتوقيته، فقتل من قتل منهم ولاذ الباقون بالفرار وقصدوا الباب للنجاة وقد ضلوا طريقهم إليه في هذا الليل البهيم، فصرخوا بالرومية بحراس الباب أن يشعلوا ناراً للدلالة عليه، فأضيء السور والباب فتوجهوا نحوه وسبقوا المسلمين إليه فقد كان المهاجمون خيالة وغالب المسلمين مشاة.

كان تخطيط الهجوم هذا من **توما**، وكان شاملاً؛ إذ لم يكن من الباب الشرقي فقط، فقد تبين فيما بعد أن كل الأبواب فتحت في لحظة واحدة، بقرعة ناقوس لم يدرك المسلمون مغزاها، كانت هذه إشارة السر التي تفتح فيها الأبواب في وقت واحد، وقد لقي المسلمون على بقية الأبواب الشدة والكرب من الروم فكانت عليهم مفاجأة وقاهم الله شرها، لكنهم صبروا واحتسبوا وتمكنوا من صد المهاجمين، وكانت أشد الفرق تعرضاً لقوة الهجوم فرقة

شرحبيل بن حسنة المرابطة على باب توما، لقد خطط توما تلك الهجمات في توقيت واحد؛ ليشغل جيوش المسلمين بها، ويتفرغ هو لقتال شرحبيل المرابط بقلة من رجاله فلا يستطيع أحد أن يمده بالجند، وبهذه الخطة يستنقذ الصليب، لكن شرحبيل ومن معه صمدوا له، وكان توما ينادي:

أين قائدكم؟

فبرز له شرحبيل وتصاولا طويلاً، وكانت **سلمى** لا تزال مقيمة مع جيش شرحبيل وتتمنى قتل توما أو فقأ عينه الأخرى فرمته بالسهام، وكانت تصوب تجاه صوته الذي ميزته بجلاء، وتارة من صليل سيفه، فكانت سهامها تصيب درعه وقلنسوته فلا تؤثر فيهما، واستمر القتال على باب **توما** فترة طويلة وطمع توما بإبادة جيش شرحبيل واسترداد الصليب، لكن خاب ظنه، ولما بزغ القمر وتراءى الجمعان بعد انكشاف

الظلام الحالك، اشتد القتال وحمي وطيس المعركة، ورمت سلمى بسهامها نحور الروم حتى أصابت نحر رجل مهم من قادتهم وقد علق السهم بنحره فصاح بأتباعه بصوت فيه حشرجة من أثر السهم؛ فالتفوا حول **سلمى** وأخذوها أسيرة، لكن كان لسلمى حماية ـ دون علمها ـ من أصدقاء زوجها الذين لاحظوا شدة اندفاعها فكانت أعينهم تراقبها ولا تفارقها، فلما رأوها قد أسرت اعترضوا سبيل الآسرين فقاتلوهم وأنقذوها، فشكرتهم، ثم عادت تبحث عن توما الذي كان يصول ويجول، فركزت عليه الحملة مع عدد من فرسان المسلمين الأشداء فلم يتمكن من الصمود ولاذ بالفرار بعد أن أنهكه القتال وقصد الباب هو وثلة من جنده، واحتموا بالأسوار.

عاد توما خائباً وهو يشتم ويلعن الخائن الذي سرب للمسلمين خطة الهجوم ليبرر فشله.

وكانت فرقة أبي عبيدة على باب الجابية أقل المتضررين؛ بل كانت الفرقة الظافرة التي أجهزت على الحملة فلم ينج من الروم إلا القليل من المهاجمين، وهذه تحسب لأبي عبيدة ويقظة رجاله.

الاجتماع بالقادة بعد هذا الهجوم

قرر أبو عبيدة أن يجتمع بقادة الفرق المرابطة على الأبواب، فدعاهم إلى اجتماع مهم ليقرروا خطة لفتح دمشق بعد أن أصبح كل منهم ملماً بالوضع، وقد خبروا من المعارك مع الروم أماكن القوة عندهم وأماكن الضعف، فلعل أحدهم يخرج بخطة محكمة تيسر لهم الفتح المبين، وفي الاجتماع بالجابية، قال أبو عبيدة:

إنه رغم إحكام الحصار فما زال الروم يقاومون ويشنون الهجمات تلو الهجمات، ورغم

عروضنا السلمية التي قدمت لهم؛ لم تأت حتى الآن منهم بادرة تظهر قبولهم لشروطنا، فهم متمسكون بالحل العسكري، ويبدو أن هذا رأي توما؛ ربما لوفرة تموينه وغزارة ماء المدينة، فتوفر لهم إمكانية المقاومة لمدة طويلة، فلم يفكروا بشروطنا، إنما الأمر الذي سيحوجهم إلى شروطنا هو ما ألحقناه بهم من خسائر في الجيش، فحتى الآن قتل منهم الآلاف، وبالتالي فإن جيشهم إلى تناقص وضعف.

فماذا أنتم قائلون؟

وأدلى كل أمير جيش برأيه، واتفقوا على تشديد الحصار وتقوية جند الباب الشرقي بقيادة خالد بن الوليد، وأن يتركز الفتح من جهته، فهو قد أعد العدة لتسلق الأسوار، وعلينا أن نمده بكل جندي نشيط لتنفيذ هذه الخطة بسرعة وبسالة، وأن نمده بالنقابين الذين يجيدون نقب السور لإحداث فجوة فيه، فيكون الهجوم من

أعلى السور ومن أسفله، وأن ننقل إليه صانعي السهام لتوفيرها بكثرة، وأن نمده بالرماة المهرة ليتمكن هؤلاء من حماية المهاجمين تحت وابل من السهام، وأن يكون الهجوم مع أول خيوط الفجر فإذا ما أشرقت الشمس كانت في عيون المدافعين ووراء ظهور المهاجمين، فنراهم بيسر ولا يروننا إلا بصعوبة، ثم تفرق القادة على هذا الرأي.

وبالمقابل فقد تشكل وفد من وجهاء الروم وأتوا إلى توما وعرضوا عليه أن يقبلوا الصلح، وبينوا له المحاولات التي حاولوها لدحر الغزاة فلم يفلحوا، وأن الصلح سيضمن لهم أموالهم وحياتهم ومعاشهم بدفع الجزية وهي مبلغ زهيد إذا ما قيس بالأموال الكثيرة التي نمتلكها، وتسلم لنا دمشق، فالكارثة إذا دخلها المسلمون عنوة، ثم ختموا كلامهم:

والرأي لكم يا صهر الملك.

فقال لهم توما:

ما كنت أظن أن تجبنوا وعندكم الجند والسلاح والغلال الكثيرة، فهل احتاج أحدكم إلى الطعام أو الشراب فلم يجده؟

قالوا: لا.

قال: فما المانع من الصبر والمطاولة؛ لعل طول مقام هؤلاء الأعراب في العراء أن يرهقهم فيرحلوا عنا، ونحن لن نستكين وسنفاجئهم بالغارات، فلن يأمنوا على مقامهم في حصارنا ساعة من ليل أو نهار، فيصيبهم اليأس.. ويرحلون عنا، لقد كان من قبلنا يصبرون على الحصار السنة والسنتين فلا يستسلمون بل ولا يفكرون بالاستسلام، فلا تظهروا لهم الخوف والجبن فإنهم يطمعون بنا ويفل من عزيمة جندنا، وهو خصم أشد خطراً على الجيش من فتك العدو، اتكلوا علي وأنا أعرف مصلحتكم ومصلحة بلادنا، ومارسوا أعمالكم باطمئنان،

وانسوا أنكم محاصرون فكل شيء متوفر عندكم وعلى الأبواب جند بواسل يحمون مدينتكم.

عاد كبار القوم من الروم إلى منازلهم فرحين مطمئنين لما سمعوه من كلام توما، ومارسوا حياتهم بلا خوف ولا قلق، حتى إنهم أعدوا العدة للاحتفال بأعياد الميلاد، وسرت في دمشق روح الطمأنينة وعادت البسمة ترتسم على الشفاه، فالقادمون للغزو ما هم إلا كحلم عابر وسينقشع لتظهر من بعده حقيقة القوة الرومية وحصانة دمشق التي يتحطم على أسوارها الغزاة.

جليلو يغير موقعه

جليلو المتابع للأحداث لم يكن ليهدأ في الانتقال من مكان لآخر وهو يتقصى الأخبار عن المسلمين المحاصِرين لدمشق، وأين تكمن مواقع القوة عندهم، إنه متعلق بالتواجد قريباً من باب توما لوجود الحبيبة بالقرب من هذا المكان، فإن

تكن طالت عليه رؤيتها لاختفاء الحفلات فإن نسائم أنفاسها تنبعث من هذا القصر، فتوقد الشوق وتشعل الجوى فهو منها قريب بعيد، ويكفي ما يمتلك من حماسة تجاهها، وما يخالجه من اعتقاد أن خيالها يطل من نوافذ قصر توما فيراها من خلف زجاجه، ومن خلال شفيف ستائره وبركة المياه التي لا بدّ وأنها احتفظت بصورتها عندما كانت تطل عليها من شرفة القصر، وعندما كانت تجلس على حافتها فتنظر إلى صفاء مياهها فترى فيها الشجر والطيور العابرة وصورتها، فتتأمل في هذه اللوحة البديعة وتتمنى لو رسمتها على صفحة لوح خشبي لتخلد جمالها، وتقول هيهات.. ثم تعبث بالماء بكفها كأنما تداعبه أو لترى اهتزاز الصور وما يحدثه الموج، ثم تنهض وتغادر المكان إلى آخر لاهية بما حولها تشغل وقتها وتنتظر غدها.

لقد كان جليلو يتسلق أحياناً برج الكنيسة

القريب من القصر ليتراءى النوافذ، ويتخيل أن كل حركة أو مرور طيف من وراء تلك النوافذ هي الحبيبة **جولي**، فيهمس لها بالحب الواعد والخلاص القريب ويتخيل أنها تسمع تلك الهمسات فتعطيها دفعة من الأمل والطمأنينة والصبر بأنها لاشك ستعود إليه، فيمضي على تلك الحالة من تَخَاطُرِ النفس معها وقتاً ليس بالقليل، وكأنه يتزود من ذلك الموقف بقوة تدفعه للصمود وعدم اليأس أو التسليم بالأمر الواقع الذي يدفعه نحو الانسحاب من الصراع الخفي الذي أحدثه مع **توما**، ثم لا يجد بدّاً من مغادرة المكان ليستكمل نشاطه؛ تاركاً قلبه رابضاً فيه وقد عشق هذا المكان وهام فيه، ولا سلطة له على قلب غزاه هوى الحبيب ألا يكون مع الحبيب، فعنده الأنس والسكن وعبير الأنفاس.

عاد جليلو إلى مقر سكناه بعد مكث طويل لعله يسمع ما استجد من أخبار، فإذا بالناس قد

تغير حالهم وفارقهم الهمُّ الذي غشيهم من الحصار، وأصبحوا أقل وجوماً وكدراً فالحياة دبت عندهم كأنما الخطر الذي كانوا فيه قد زال وانتهى، فأصيب بالذهول مما رأى، وقفزت إلى رأسه تساؤلات كثيرة.

أفك المسلمون الحصار، أم هزموا؟

ماذا حدث؟

ما الأمر؟!

لعل الجواب عند إيليا.

أسرع إلى حانوته ليسمع منه تفسيراً لحال الناس وتبدله ما بين عشية وضحاها.

وصل إلى الحانوت فرأى **إيليا** مثل بقية الناس المنشرحين، فقال مبادراً:

هل حدث ما بدل حزن الناس فرحاً وتفاؤلاً فأقبلوا على أعمالهم غير مبالين بما دهاهم من الغزاة؟

قال إيليا:

وعدُ توما لهم بأن هؤلاء القوم الغزاة لا خطر منهم وسيندحرون، وأن الشتاء وحده كفيل بإلحاق الهزيمة بهؤلاء الحفاة العراة، والملك هرقل يجمع لهم الجيوش التي ستبيدهم عن آخرهم إن لم يهربوا من تلقاء أنفسهم.

قال جليلو: إذاً هذا الذي طمأن القوم هنا وأعطاهم الثقة بطرد الغزاة، وأنت يا عم **إيليا** ما تقول في قول توما؟

أجاب: وعودٌ وسننتظر لنرى صدقها من كذبها، وبينما هما في هذا النقاش ـ وكان يود أن يسمع كلاماً من إيليا يكذب هذه المظاهر، وأن يقول له:

إن المسلمين قادمون لا محالة؛ لأنه أخبره من قبل روايات الكتب المقدسة بظهور المسلمين وزوال دولة الروم، وفي هذه الأثناء قدم أصحابه

الذين يخدمون في قصر توما مستبشرين متهللين، لقد أتوا ليبشره، بأن توما قد عزم على إقامة حفل كبير ابتهاجاً بالنصر القريب المنتظر على الغزاة، وكان الحفل فكرةً ذكية من **توما** ليدعم وعوده، ويريهم أنه غير قلق بشأن الغزاة، وبهذا يبعث في نفوس قومه الطمأنينة ليزاولوا أعمالهم ويعيشوا حياتهم الاعتيادية فلا تتوقف عجلة الإنتاج، وهذا أدعى للصمود والمقاومة وعدم الانهيار، فقد كاد الناس أن ينهاروا ويستسلموا.

قال **جليلو** لأصحابه: هل سأصحبكم في هذه المرة أيضاً؟

قالوا: نعم، ما جئنا لنخبرك إلا لهذا، ثم غادروا المكان ليستعدوا على أمل اصطحابه معهم عند المساء.

وفي المساء حضر **جليلو** مع رفاقه مبكرين وأعدوا الآنية والكؤوس والأباريق وفق النظام

المعتاد واستعدوا لطلبات الحضور، ثم توافد كبار القوم من الأعيان وقادة للجيش ومن له حظوة عند **توما**، وكالعادة نساء وعزف وتبادل الكؤوس والأنخاب واستعراض للنساء المصاحبات للعازفة وهن بأبهى الزينة وأجمل الحلل والحلي، وانتشرت الغانيات في القصر وهن يمزحْنَ مع هذا وذاك ويتكلمن في غنج ملفت وتثن متقن طبعن عليه مع بروز للمفاتن عند النحور وساحات الصدور، في ثياب أرق من النسيم ـ رغم الشتاء العاصف ـ تشف عما أردن إخفاءه بإتقان وخبث ماكر مع تبادل القبلات والقهقهات، وهن صاحبات من ليس له صاحبة.

حفل صاخب بكل المقاييس؛ اختلطت فيه الأصوات والغناء والموسيقى، وما إن امتلأ البهو الكبير حتى أخبر كبير الحجاب القوم بقدوم **توما** فأنصت الجميع ماعدا الموسيقى التي تغير فيها اللحن كأنها ترحب بصاحب المقام الكبير، ولما

أطل بثيابه البهية وأبهة السلطان ممسكاً بزوجته ابنة هرقل وحوله جمع من الغانيات يحملن الشموع والمباخر، وكان جليلو الذي حملق من النافذة وأدهشه هذا الحفل الذي تفوق في المظاهر على سابقه رغم حالة البلاد والحصار، لكن كل هذا لا يعني **جليلو** من قريب أو بعيد، إنه حضر لأجل **جولي**، ثم راح ينقّل نظره من غانية إلى أخرى ممن حول توما، يا إلهي أين **جولي**؟ بهذا تمتم لسانه، ولما تقدم توما في البهو أكثر فأكثر إذا **بجولي** تمشي خلف سيدة القصر وتحمل ذيل ثوبها الطويل الذي امتد لعدة أذرع، فخفق قلبه لما رآها، يا لجمالها إنها قمر يحفه النجوم، وقد لبست فاخر الثياب وتزينت بالذهب والياقوت والمرجان.

وتساءل جليلو: لماذا هذا الاحتفاء **بجولي**؟

أيجهّزها لتكون محظيته التي تسعده وتكون من خاصة خواصه؟

وما معنى حملها لثياب سيدة القصر كأنها إشبينة؟

أيريد أن يربط بينهما بعلاقة ودية تمكن **جولي** من ملازمتها في مجلسها وبالتالي تكون قريبة من **توما** فلا تفارق عينه؟

أتراه شغف في حبها ووقع بغرامها؟

وهي، أتبادله الشعور نفسه والغرام به والاستسلام لنزواته؟

إنها تبدو بنت ليلتها سعيدة بما هي فيه ليس للكآبة ارتسام على وجهها، وقد تفتحت أساريرها كزهرة تامة غادرت برعمها وبثت شذاها، إنها اليوم غير ما رأيت بالأمس.

طولُ الملازمة لهذه المظاهر المغرية غيّرها وجعلها تستسلم للأمر الواقع، ربما يئست من الخلاص فأرادت أن تعيش حياتها التي هي فيها الآن، وما ترفل فيه من ترف يغري كل فتاة.

أتراها ضاعت مني إلى الأبد وأنا أجري خلف سراب؟

أم إنها لا تزال جولي التي أعرفها؟

لن أيأس من متابعتها حتى النهاية، ولسوف أنقذها من توما ومن نفسها لو تبين لي أن هواها مع توما.. إنها ابنة عمي ومن حقها علي حمايتها، وبينما هو في خياله سارح يتخيل ما يظنه الحقيقة ويناقشه في داخله فيثور في أعماقه تارة ويهدأ أخرى، إذا بالموكب الأميري يأخذ مكانه وتبقى **جولي** خلف الملكة لا يبدو منها لجليلو إلا طرفاً من وجهها، فتتسمر عيناه تجاهها ويتمنى لو تلتفت يميناً نحو الكوة فيُظهر لها إشارته لعلها تُذَكّرها به، فتعلم أنه قريب منها لم يفارقها.

مرت ساعة من الحفل و**جولي** متسمرة في مكانها وعيناها تقع على ما يدور في الحفل في

غير الجهة التي يتمنى **جليلو** أن تلتفت إليها، لقد مل الانتظار.

هل يهتف باسمها بأعلى صوته وليكن ما يكون، ويهدم بفعلته هذه بثوان ما تمنى أن يبنيه مع **جولي** في سنين؟..

ثم يمني نفسه بالصبر، وينادي من الأعماق الرب العظيم أن يساعده، وفجأة تحين منها التفاتة خاطفة تجاه الكوة التي تسمر فيها جليلو، وربما لمحته أو خيّل إليها ذلك، أو إن ما تحمله من حب لجليلو قد أبدى لها أنه خيال الحبيب الذي تذكره ولا تنساه، وربما كانت تفكر فيه في تلك الساعة في هذا الحفل وتتمنى لو كانا زوجين فتشبك يدها بيده كما يفعل كثير من الأزواج في هذا الحفل، ثم تفرك عينيها للتأكد من قوة إبصارها وترنو خلسة إلى الكوة لتزيل الشك باليقين بأن الذي رأته ليس حلماً من أحلام اليقظة، ربما حقيقة متجسدة أمامها لا

ريب فيها، فلما عاودت النظر رآها جليلو فرفع لها يده بإشارة تعودت أن تراه يلوح بها عندما كانا يودان الالتقاء للخروج معاً؛ فقد كانت إشارة مميزة توافقا عليها من قبل، فأمسكت قلبها بيدها ثم كتمت بالأخرى أنفاس فمها لتخنق صرخة لو تركتها تخرج لنبهت الحضور لأمرها، لقد غمرتها سعادة كانت قد فارقتها منذ شهور فتهلل وجهها فازداد إشراقاً ونوراً، وتجدد في نفسها الأمل في الخلاص مما هي فيه، وأيقنت أن ابن عمها متابع لها ولن يتركها مهما بلغت به التضحيات؛ يدفعه حب ملتهب متوقد بين الضلوع.

وكاد **توما** اليقظ الذكي اللماح أن يكشف السر لولا هرج شديد خارج القاعة، نبه **توما** لأمرٍ ما يحصل غير مرض له، فهو يريد من هذا الحفل أن يغرس الثقة في النفوس، وهذا الهرج المنبعث من خارج القاعة يبدد سكينة النفس ويقلق الناس، فأوقف العزف بإشارة من يده

وأومأ إلى كبير مرافقيه ليستطلع الخبر، فعاد الضابط الكبير ليهمس في أذن توما بسر أقلقه وبدا عليه الاضطراب رغم مداراة ذلك بما يستطيع من هدوء، ثم أمر الجميع بالهدوء مع الوعد بأن ما سمعوه تحت السيطرة وليس بالأمر الخطير، وبعد توقف العزف لدقائق معدودة عاد العزف واستمر الحفل مع قلق باد قد ارتسم على الوجوه من غير أن يعرفوا ما حدث في الخارج، لكن ثقل الشراب الذي دار في الرؤوس أنساهم الخطر المحدق، إلى أن أتموا حفلهم ثم ودعوا **توما** بالتقدير وعظيم التحية وخرجوا يقصدون بيوتهم مترنحين يهزون بتمتمات وكلام لو سمعه توما لعاقبهم عليه، فالسكر يخرج خبايا النفوس عندما تغيب رقابة القلب الذي تخدر، وعندها تتكسر أقفال اللسان وتنساب منه الكلمات الحبيسة كالعقد انقطع نظامه.

كانت الأخبار قد انتشرت بسرعة البرق،

لقد وقع اختراق عند الباب الشرقي ورقي بعض الجنود من المسلمين السور مستغلين انشغال الجند بالحفلات إثر معاودة الحانات عملها بالطاقة القصوى، وما من مكان أو بيت إلا وقد عمر ليلته بالأقداح والليالي الملاح وتبادل الأنخاب، فاصطكت الكؤوس بالكؤوس، ودارت الخمرة في الرؤوس، فبين واله يغني وهو يتأرجح، وسكران يترنم بعبارات مفهومة وغير مفهومة يهذي بها ويتبجح، ومومسات لاهيات لاعبات بالرجال ولا من منكر لما يرى أو مقبِّح، أعطوا للشهوات العنان فانطلقت في هذه الليلة لا يكبحها كابح، وهم أهل دين سماوي فخالفوه مع أنهم يحتفلون بالرمز الأسمى فيه «**ليلة الميلاد**» ميلاد المسيح عليه السلام، المعجز في التكوين والنشأة، والناطق بالعبودية لله منذ استهلاله للدنيا: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.. وإذا عدم الناصحون والدعاة وأهل الحق في بلدة اضطربت أخلاقها،

وانحدرت فيها القيم آذنت شمسها بالأفول، وتعرضت لعقاب الله؛ إما بالكوارث الأليمة المنذرة أو بالعدو القاهر المسلَّط، وهذا يذكر بقول الله تعالى لبني إسرائيل عندما خالفوا المنهج القويم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٥]، كان الحدث الذي أزعج **توما** واضطرب له صعود عدد من جند المسلمين الأسوار فاحتلوها لفترة محددة ريثما تسلل نفر منهم إلى مستودعات القمح فأحرقوها، ثم عادوا سراعا وتدلوا بالحبال خارج الأسوار، فلم يقتل منهم أحد أو يصابوا بكَلْم، وكان هذا بتدبير من **روماس** الذي يعرف خبايا دمشق، فنفذوه كما رسم لهم مستغلاً هذه الليلة التي تلعب فيها الخمرة بالرؤوس.

عاد **جليلو** مع رفاق الخدمة والسعادة تغمره، لقد اطمأن ـ ولو من بعيد ـ على سلامة الحبيب خصوصاً عندما انسحب توما من الحفل إلى قصره، وقد عاد بالعظمة والأبهة التي قدم بها، فشبك مرفقه بمرفق زوجته ومشيا باختيال وأنفة مودَّعين من علية القوم و**جولي** تحمل من الخلف أذيال ثوب سيدة القصر، لقد ملأ جليلو عينيه من **جولي** بعد انقطاع دام شهوراً إلى أن اختفت رويداً.. رويداً عن نظره.

جليلو يتحرك

حرك هذا المشهد جليلو وقال في قرارة نفسه:

علي أن أعمل شيئاً.. لا بد من العمل والتضحية، فالسكون والتمني لا يصنعان ما أريد، وراح يسأل عما حدث ليلة الحفل فأخبر بالحقيقة:

جنود من المسلمين عند الباب الشرقي تسلقوا الأسوار وقتلوا وأحرقوا وعادوا سالمين.

فقال: من الباب الشرقي! أي من مركز القائد الكبير هناك، وربما يأتي فتح دمشق من ذلك الباب.

علي أن أتحرك إلى الباب الشرقي إذاً، ولكن كيف أبيت وعند من؟

هنا وفر لي إيليا السكن الملائم قرب باب توما، فهل سأجد هناك رجلاً مثل إيليا؟

سأطرح الفكرة عليه لعله يرشدني إلى الصواب، لقد وعدني بالمساعدة، وعلي أن أنام الآن وعند الصباح سيكون لي حديث معه.

أسند جليلو رأسه إلى الوسادة بيد أن النوم جفاه، فكان شريط الأحداث يمر في مخيلته، وما إن ينتهي من استعراض ما مر به من أحداث حتى يعاوده التفكير بضرورة الذهاب إلى الباب

الشرقي، وهل سيحل له إيليا يا ترى مشكلة المبيت؟

لقد طال ليل جليلو وكاد رأسه أن يتصدع من السهاد، حاول طرد الأفكار من رأسه ليهنأ بقليل من النوم ليستيقظ نشيطاً فلم يفلح، وما إن انبثق الفجر الصادق وشقشقت العصافير وعلا صوتها وملأت به الدار وأهلَّ النور مطلاً يملأ السماء حتى نهض من فراشه واتجه إلى البهو وجلس فيه ينتظر **إيليا** أن يفيق من النوم، كأنه يريد أن يشاطره طعام الإفطار، وهو في الحقيقة يخشى أن يفوته فيسبق إلى الحانوت فلا يلتقيه بقية اليوم، فقد أثقل صدره جملةٌ من الأسئلة عن الباب الشرقي وجثت كأنها كابوس لا فكاك منه، ويريد أن يريح منها صدره بطرحها على **إيليا**.

جلس وهو شارد الذهن يفكر ويخطط، فخرج إيليا ووقف بقربه، لكنه لم يحس بوجوده فتنحنح إيليا فانتبه جليلو، ثم بادره بقوله:

ما الذي جعلك تجلس هنا؟

رد جليلو: أمر هام أردت أن أعرضه عليك فأرى رأيك فيه.

قال إيليا: أحسنت، قل ما عندك وأنا أسمع.

أخبره جليلو أنه يريد الانتقال إلى الباب الشرقي، فالمعركة الفاصلة قد تكون من هناك، حسب ما قيل لي، فإن قائد جيش المسلمين يرابط على ذلك الباب.

قال إيليا: هذا ما نسمعه عن ذلك القائد، ولكن ما المشكلة؟ انتقِلْ إلى هناك.

قال جليلو: أريد أن أبقى هناك مرابطاً ليلي ونهاري وأحتاج إلى مأوى، فهذا ما يشغل تفكيري.أطرق إيليا قليلاً وهو يفكر في الأمر.

قال: الحق معك، وجدت لك المسكن المناسب، هناك صديقي **يونس**، وهو أيضاً

صديق والدك وعمك، هو وعمك من مدرسة واحدة قرءا الكتب القديمة وتبحرا فيها، وأفكاره متوافقة مع أفكار عمك.

أجاب جليلو: أرجو ذلك، دعنا الآن نتناول طعام الإفطار ثم نمضي إليه سوياً لأعرفه عليك، فهو يسكن قرب الباب الشرقي، وبيته ملاصق للأسوار، وستأنس به وتسترشد بآرائه.

قال جليلو: هذا ما أريد أيها العم إيليا.

وبعد تناول الفطور هب جليلو واقفاً كأنما يستحث إيليا على المضي معه، فهو لا يريد أن يضيع وقته.

كان إيليا لماحاً ذكياً فلاحظ ذلك فعلم مقصده فتبسم، وقال له:

هيا إلى القديس يونس.

وانطلقا في الأزقة والمنعطفات، قطعا خلال ذلك ربع محيط سور دمشق، ولما اقتربا،

قال إيليا: هذا هو بيت يونس، فتقدم إيليا وقرع الباب، وما هي إلا لحظات حتى سمعا صوتاً من الداخل:

الباب مفتوح فليدخل الطارق.

همس إيليا في أذن جليلو:

نسيت، بيت يونس مفتوح لكل من يريد الدخول، فهو مرجع لمن أراد أن يسأل أسئلة في الدين والأخلاق والتربية، لذلك لا يُغلِق بابه.

لكنْ تأدُّبُ إيليا بأن لا يدخل بيتا إلا مستأذناً جعله يقرع الباب.

دلف إيليا وجليلو داخل البيت، وكانت مفاجأة ليونس، فهذا صديق عمره إيليا يزوره بعد غياب طويل، فتبادلا السلام في حرارة واشتياق، ثم قدم إيليا جليلو ليونس معرفاً به، فازداد يونس بشراً وسروراً، فهذا ابن صديقه الحميم وابن أخ روماس صاحبه في المنهج والتفكير، فرحب بهما

أشد الترحيب، وحاول أن يقدم لهما طعاماً من الزيت والخبز والزيتون، لكن إيليا أخبره أنهما أفطرا قبل قليل، وعليه اقتصرت الزيارة على أحاديث الساعة ووقوع دمشق تحت الحصار، فكان حديث يونس صريحاً بأن هذا الزمان هو زمان ظهور الدين الإسلامي دين آخر الأنبياء محمد ـ ﷺ ـ وأن الكتب السماوية وما أخبر به الأنبياء السابقون والمسيح عليه السلام بأن هذه البلاد سيدخلها النور المحمدي لا محالة، وأشار إلى مجموعة من الكتب التي تذكر هذه الأخبار، وحتى إن هرقل نفسه يعرف ذلك، لكنه محاط ببطانة فاسدة منعته من مهادنة المسلمين أو الدخول في دينهم، لما يعتقدونه من أخبار محرفة لا ترقى إلى الصدق، وأنا أحمد الله أن الكتب التي حرفت وطمست هذه الحقائق عن الناس هي التي كانت في متناول الحكام، أما التي كانت عند القديسين والرهبان الذين انقطعوا في الفيافي

للعبادة فلم تصلها يد التحريف، بل إن أهل الحق أخفوها لما قامت حملات للتفتيش لجمعها وإحراقها أو إتلافها في طول البلاد وعرضها التي كانت تتبع حكم النصارى، وهذه الحقيقة يعرفها الملك هرقل كما قلت لك، لذلك لم يقد الجيوش بنفسه ضدهم، فهو يرسل الحملات تلو الحملات مع القادة المتحمسين للقتال الذين خُدعوا بالمجد الزائف والأفكار المضللة.

قال إيليا: على هذا ما أنت فاعل الآن؟ لأني أراك متحمساً للمسلمين مرتاحاً لهذا الحصار.

رد يونس: لا أكتمك يا صديقي أني سعيد لما أرى وأنا أعيش صدق نبوءة المسيح عليه السلام، أما ماذا سأفعل فلم أتخذ حتى الآن القرار الحاسم، وأرجو من الرب أن يهديني سواء السبيل.

ثم قص إيليا قصة جليلو، وأنه يريد أن يقيم قريباً من الباب الشرقي الذي يحاصره قائد المسلمين المظفر خالد بن الوليد الذي هزم الجيوش في وقائعه المشهورة.

سر يونس بما يفكر به جليلو وقال:

بيتي واسع، وعلى الرحب والسعة، أقم عندي ما شئت، وربما أحتاج في بعض أموري لمن يساعدني، فكأن الرب أرسلك إلي في الوقت المناسب.

كان **يونس** يفكر من قبلُ بأمرٍ ما.. ولكن يحتاج للمساعدة، فوجد في إقامة جليلو معه بأنه الشخص المطلوب؛ خصوصاً وأن جليلو حانق على توما وأنه ليس مع الرومان.

أخذ يونسُ جليلو إلى غرفة حسنة التهوية فيها فراش للنوم وبعض لوازم الإقامة، وقال له: هذه غرفتك، فأنت منذ اليوم بمثابة واحد من أبنائي.

رد جليلو على يونس بالشكر والعرفان لهذا الجميل، وقال:

سأكون رهن أمرك فيما تطلبه مني، وسأستفيد من علومك ومعارفك في ملازمتي لك.

وهنا قال إيليا: أنا في غاية السرور لأني قدمت خدمة ليونس وجليلو معاً، وسأترككما الآن في رعاية الرب، وأعد بأني سأزوركما بين فترة وأخرى للاطمئنان عليكما.. ثم انصرف.

يونس وجليلو

مكث جليلو مع يونس عدة أيام فرأى منه عجباً، رجلاً متواضعاً متقشفاً يتمثل تعاليم المسيحية بإيمان راسخ، مع نفس راضية ومحبة تراها بادية في حركاته وسكناته، فهو كثير التفكر والتأمل، عابد لا يفتر، وبمعنى أدق تراه إنجيلاً يمشي على الأرض، لا يريد شيئاً لنفسه وإنما همه الإنسان الذي تاه وأصبح يحتاج إلى التوجيه

ليصل إلى الرب وفق ما أراد خالقه، يتمنى أن يكون قرباناً ليفدي البشرية، ولكن البشرية في واد وهو في واد آخر.

تمتم بهذا جليلو وهو يستعرض حياة الرهبان المنقطعين ذاتياً للعبادة:

لقد أصبح أهل الله والصالحون في هذا الزمان بعيدين عن الناس وبينهم وبين المجتمع هوة صعب جسرها، هم في نظر الجيل الجديد يعيشون في غير عصرهم؛ شعارهم البعد عن الناس والتصومع في الصوامع المنقطعة، والزهد غير المبرر.

أكسية صوفية لا تُحتمل في الصيف ولا حتى في الشتاء.

وكسرات من الخبز وإدام من الزيت.

بينما الخيرات تملأ الدنيا، وصنوف الطعام والشراب لا تعد ولا تحصى كثرة وجودة.

فلماذا الحرمان ولمن تترك هذه الخيرات؟

الثياب الحريرية لمن تصنع إذاً؛ إن لم نلبسها نحن وننعم بها؟

كثيرة وواسعة تلك الهوة.

أهم أكثر فهماً للدين من هؤلاء القساوسة الذين يحيطون بالحكام وعليهم الطيالس والديباج، وموائدهم عامرة بالطيبات من الطعام والشراب؟

هؤلاء هم الناس، عرفوا الحياة ونعيمها وقدّروا نعم الرب فتراها ظاهرة عليهم لا ينكرونها وهي تحدّث عن نفسها.

تقلدوا الصلبان الذهبية والفضية وحملوا القضيب الكهنوتي المحلى بالذهب والفضة وفصوص الجوهر.

قلنسوات البطارقة ونقش ثيابهم تساوي آلاف الدنانير.

والعطور والبخور!

أليست هذه من مباهج الحياة؟

والأعياد التي كثرت.. وما رافقها من مظاهر الترف من زينة وطعام ولباس.

أعطوا للمرأة المكانة اللائقة بها، فهي تشاركهم أفراحهم وأحزانهم.

خرجت من قوقعة الحرمان التي أرادها لها هؤلاء المتزمتون، فلبست شفيف الثياب.

رقصت فأبهجت.

وغنت فأطربت.

وعشقت فأنعشت القلوب لذة واستمتاعاً.

وأعطت الحياة أفقاً أرحب فأثرَتْ قاموس الحب والجمال والمخاللة والهيام، وعلاقات الأنس ودغدغات القلوب.

فالمرأة نصف المجتمع، وإذا ما نالت ما تريد وانطلقت كما تشاء فإنها ستكمل النصف المفقود في المجتمع ثقافة وفناً وعملاً وإنتاجاً.

وربما تزيد عن الرجل عطاء، فقد انتهى ما عند الرجال من فكر وحكمة وقيادة وتجديد وابتكار، ولم يعد عندهم ما يعطونه للمجتمع، فهم يجترون ما مضى ويعيدون ما سلف، مراوحةٌ في المكان مقيتة، لكأن عقولهم قد توقفت أو كادت أن تجف لأنهم يتصدرون المجتمع منذ بدء الخليقة.

والمرأة ما زالت الأرض البكر تحمل الكنوز والمفاجآت، وربما جاء دورها لتكون المنقذة لهذا المجتمع المتخبط في التيه، فتخرج بالفكر المستنير والإصلاح الذي يعيد للمجتمع الحياة وربيعها ويخلصه من الجمود والتحجر واجترار الماضي.

فالحاضر هو المبتغى وما فيه من متع مبتكرة هي حياة القلوب.

ألا سحقاً للماضي ولمن يدعون إليه.

قال جليلو هذه العبارات وهو يشرح ليونس حال الناس اليوم ويخص منهم الشباب، ويونس يسمع منه العجب في تشخيص حالة المجتمع، إنه شاب وهو مع التغيير، ولكن ماذا يقول ليونس وقد رآه صالحاً مجتهداً، يحترق قلبه إشفاقاً على المجتمع؟

أهناك خطأ في الأسلوب؟

أم في عدم مخالطة الناس والانعزال عنهم؟

أم في التطور الذي يغزو المجتمعات الكبيرة بين حين وآخر؟

أم في عدم الوقوف على احتياج الناس؟

ثم كان الجواب من يونس: نعم نحن

ابتعدنا عن الدنيا لأننا نريد الآخرة، فهي الأساس وهي المطلب، وتحركت شفتا جليلو ليتكلم ثانية لكنه ضغط عليهما، لقد آثر السكوت، فلاحظه يونس، فقال:

تكلم يا بني أتريد أن تقول شيئاً؟

هنا قال جليلو: ألا يمكن لنا أن نجمع بين الحسنيين الدنيا والآخرة؟

نأخذ من هذه أحسنها ومن هذه أحسنها، وإلا لمن هذه الخيرات إن لم تكن لنا؟

ولماذا نزرع ونصنع إن كنا لا نريد أن نستفيد مما نزرع ونصنع؟

قال يونس: هذا كلام أهل الدنيا، فالدنيا فيها الخير وفيها الشر والإنسان في امتحان، فإذا أوغل فيها سقط، والجمع بين الدنيا بما فيها وبين الآخرة التي تصطفي الناس صعب، فهل تستطيع أن تحمل بكف النار وبالأخرى الثلج،

فهما نقيضان، فاحمل بكفيك سبب معيشتك وسبب آخرتك تنج، ولا نجاة إلا بهذا، فالعمر قصير في هذه الدنيا ألا تراه يمضي سريعاً، فالصبر سهل على من كبح شهواته، وما عند الله هو النعيم الدائم الذي لا يفنى في جنات عرضها السموات والأرض.

هز جليلو رأسه بالموافقة فالنقاش بدأ يأخذ منحىً فكرياً يحتاج للصفاء الفكري، وجليلو يعيش حالة قلق على الحبيب، فهو الآن غير مستعد للنقاش الجاد، وتوليد الأسئلة التي توصل أجوبتها إلى القناعة يحتاج إلى الاطمئنان والتفرغ لهذا الأمر وعدم إشغال الفكر بشواغل تضعفه.

جولي

عاشت **جولي** في قصر توما كالمعلقة لاهي زوجة فتعرف ما ينبغي للزوجة فعله، ولا هي خليلة فتعرف الحق لمن تخالل، لقد أخرجت من

بيت أبيها وتركت هكذا للقدر، هي تأكل ألذ الطعام وتتناول ألذ الشراب وتلبس الثياب الفاخرة ولكن ليس هناك من هدف واضح لحياتها.

نظرات **توما** إليها بين محب متردد وبين هاجر متندم، لا تقف له على وضوح المعاملة أو ثبات الموقف، حتى أصبحت لا تعرف لمَ أتى بها من بصرى؟!

أهناك من وسوس له بأن يعمل على قطيعة ما كان بينها وبين ابن عمها، ففرق بينهما هكذا.. ولأجل من؟

إنه لا قلب له ولا يعرف للحب معنى فلا تدري كيف تعيش معه زوجه وهو بهذا التحجر والتجهم؟

وهي ابنة ملك البلاد هرقل، أتراه في خلواته معها لطيف ظريف؟

لا أتوقع منه هذا، خصوصاً بعد أن أصبح

بعين واحدة، فالكآبة لا تفارقه وروح الانتقام ظاهرة في تقاطيع وجهه المصفر.

ومن نموذج توما أصبحت **جولي** تكره الرجال، ولم تعد لها رغبة في أحد منهم، فانقلبت من محبة لهم بسبب ما كان بينها وبين جليلو إلى مبغضة لما رأت من توما.

وأصبح الخوف يلازمها منهم ومن النظر إليهم، فانطوت على نفسها وأحبت الخلوة والانعزال.

ورأت في أحد الأيام امرأة وضيئة الوجه ترتدي البياض وتتلفع بغطاء يحجب شعرها وعنقها، تمشي كأنها ملاك على الأرض فتعلق بصرها بها ولاحقتها بعينيها في ذهابها وإيابها، فهي تأتي إلى القصر لساعات محدودة ثم تغادره، وقد لاحظت تلك المرأة الملائكية نظرات هذه الفتاة فأقبلت إليها وسلمت عليها ولاطفتها،

وتبادلتا حديثاً ودياً إلى أن قالت لها **جولي**:

تعجبني ملابسك هذه ففيها الرتابة والجمال، قالت المرأة:

هذه ثياب ملائكية تخصنا نحن الراهبات.

جولي: كنت أرى الراهبات في بصرى، ولكن ليس بهذه الأناقة والجمال.

الراهبة: هذه الملابس خاصة بكنيسة القصر، فنحن لنا تقديرنا والاهتمام بنا من الحكام، اختيارنا، ملابسنا، الإنفاق علينا، الاهتمام بتعليمنا، مسكننا في الكنيسة، نحن من صفوة الراهبات.

جولي: هذا جميل، يا للحظوة التي تنالونها.

ثم تحول الحديث بينهما إلى بيان معنى الراهبة بعمق أكثر مما كانت تعرفه جولي، فاهتماماتها السابقة لم ترق إلى درجة التفكير بهذه

الفئة أو الاهتمام، ربما لنشأتها على التحرر من القيود الكنسية، لكن حالتها الراهنة وما شاهدته من أناقة هذه الراهبة لفت انتباهها.

ثم أوضحت الراهبة ما تقوم به من عمل في هذه الكنيسة بالذات وما ميزتها عن النساء الأخريات، وكانت الراهبة من المتعشقات لهذا العمل المندمجات فيه، إضافة إلى أنها أُعطيت حديثاً جذاباً ولساناً ذلقاً، فاجتمع لها حب عملها ولباقة حديثها وذليق لسانها، فأدخلت القناعة عند **جولي** في حب الترهب والانقطاع إليه في كنيسة النخبة، ثم وعدتها بالمساعدة إن أحبت أن تسلك هذا الطريق، وقالت لها قبل أن تغادر المكان: أنا أختك **ماري** هذا هو اسمي، إلى اللقاء.

فكرت جولي بكلام ماري ملياً وداخلتها قناعة لسلوك هذا الطريق هرباً من الرجال ومما هي فيه، لكن على **جولي** أن تستأذن توما في هذا الأمر فهو الآن ولي أمرها وتعد من حاشيته،

وراحت تنتظر فرصة للحديث معه في هذا الأمر، لكن نازلة من الزكام نزلت **بجولي** فاعترتها على إثرها البُرَداء، فكانت بين حرارة مرتفعة وشعور بالبرودة إلى حد الرجفان، وأخبر توما بحالتها فأرسل لها طبيبه الخاص، وبدأ يعطيها من الدواء ما يناسب مرضها، وهو مرض شائع ليس بغريب، فأكثر سكان دمشق يصابون به في الشتاء نتيجة البرد والرطوبة، ولكن لا بد من الراحة والدفء للشفاء منه مع تناول الأشربة الخاصة بعلاجه، وبعد أيام زارها **توما** ليطمئن على حالتها، فوجدتها فرصة لطلب الإذن منه في التفرغ في الكنيسة كراهبة تخدم الدين، لم يستطع توما إزاء طلبها إلا الموافقة، لأنه الحاكم في دمشق وهو نائب الملك وحامي الكنيسة المرغّب في خدمتها، ولكن شرط أن تترهب في الكنيسة التابعة للقصر لتكون قريباً منه، وهكذا حصلت **جولي** على بغيتها يحدوها الأمل أن تجد مجتمعاً

مختلفاً عما هي فيه، ولعل نفسها ترتاح في البيئة الجديدة، فدور العبادة هي دائماً مقصد من يريد الخلوة والتفكر والتأمل بعيداً عن صخب الناس وضوضاء المدينة، ولما أبلّت من المرض أخبرت **ماري** برغبتها وأنها نالت موافقة توما فسرت بذلك ماري واحتضنتها تعبيراً عن حبها لها، وأنها وجدت لها صديقة جميلة ستكون لها الأخت المقربة وبيت السر في وقت الفراغ وعند الثرثرة وتقطيع الوقت، ثم توجهت جولي بصحبة صديقتها إلى الكنيسة وهناك وجدت الحفاوة والترحيب والعناية اللائقة، ترغيباً لها لهذا الاختيار، لأنها ستهب نفسها للخدمة الدينية، وتعزف عن ملاذ الدنيا وخصوصاً الزواج، وهذه تضحية تحتاج للتشجيع وتقديم المعونة لها لتسلك هذا الطريق إلى أن تعتاد عليه وتتأقلم فيه.

دخلت **جولي** في هذا الجو الجديد، وبدأت تتلقى التعاليم المسيحية على يد معلمين

تمرسوا بهذا العمل لإعدادها الإعداد الجيد فيما ينبغي أن تكون عليه إيماناً وعملاً وتضحية ودفاعاً عن تلك المبادئ، وكانت فرحتها شديدة أن لبست تلك الثياب البيضاء الجميلة، التي زادت من جمالها فأضحت ملاكاً يمشي على الأرض، فاشرأبت لها العيون وطلب منها زميلاتها الراهبات ودها والتقرب إليها، حتى إن الأستاذ الكبير لم يكن يرفع نظره عنها، فالجمال الأنثوي يثير النفس ويحرك الخاطر ويريح النظر، فطرة وضعها الخالق في نفس كل إنسان سوي، بل في جميع مخلوقاته؛ ترى انجذاباً متبادلاً بين الذكر والأنثى.

لكن ما بال الراهبات أيضاً؟!

ولمَ هذا الانجذاب؟

إنها وردة أطلت زاهية في حديقة تطامنت دونها بقية الزهور، ولكن على هذه الوردة أن

تحترس، وتكون وردة جورية من بصرى التي تربعت على حافة الصحراء، وهي التي تنبت الورد الجوري برائحته القوية المحببة مع شوك طويل نوعاً ما يغطي ساقه ويعد حارساً لهذا الجمال، فقليلون هم الذين قطفوا من ذلك الورد ولم يصبهم شوكه أو يدمي الأصبع التي امتدت إليه.

وبعد حوالي نصف شهر من تطوعها في الكنيسة بدت أكثر هدوءَ نفسٍ واطمئنان، وكانت أكثر تقبلاً للتعاليم من غيرها من الراهبات، فقد سلكت الطريق كما يقول المتصوفة بيسر ووصلت أو كادت أن تصل للغاية، وهذا ما أذهل المتابعين لها، وأصبحت ترى أن كل من هو خارج هذا السبيل غير متدين وهو أبعد ما يكون عن التعاليم المسيحية، فجذوة الإيمان هنا في الداخل لا غير، وأولئك الذين في الخارج قطيع هائم ضال يحتاج للإرشاد، وعليهم أن يقيموا في

الكنيسة زاهدين لكي يعرفوا الطريق الموصل إلى الملكوت الأعلى، وكان التساؤل ممن حولها لماذا وصلتْ قبلنا فعرفتْ الطريق؟ وفينا من هي أكبر منها سناً وألصق بالكتاب وأقرب للكهنة، وأقدر على الخدمة، فكيف وصلت وما السبيل إلى مجاراتها؟

ولم يعلمنَ أنها لما دخلت هذا المجال دخلته هاربة من وحش اسمه توما، وأنها أيست من اللقاء مع أهلها وحبيبها، فدخلت وهي لا تريد أن تعود إلى الخارج، فقد تركت كل شيء خارج الكنيسة وخلَتْ ههنا مفرغة الذهن لا تود أن تعود إلى الماضي، ورأت كأنها ولدت في هذا المعبد من جديد..

نسيت أمها وأباها كأنما سلمت بوفاتهما، وأيست من اللقاء بهما، وسلمت أن الحبيب تائه وعاجز عن تخليصها من الصخري الغليظ توما، وربما أضاعته الأحداث.

عالمها أصبح هنا، كهنة من الرجال والنساء تشاركوا فيما بينهم بهذا الانقطاع، والقاسم المشترك بينهم أخوّة الدين والعمل له، مع فترات ترفيهية وترانيم كنسية تمجد المعبود لتهيم الروح في هذا الوجود، ومع استلطاف النفس للنفس أحياناً ممن حولها، ولمسات حنان ـ يبدو للوهلة الأولى ـ تكسر من جفوتها، فتتأقلم مع هذا الجو رويداً.. رويداً لكي تُلَيّن من شموسها، وتُهَدّئ من جموحها، لتندمج مع هذا الوسط التي هي فيه.

إنها وصلت بالإخلاص الذي عدم عند غيرها، فها هي الكنيسة لها مواعيد مع بعض الغرباء ممن أحبوا قضاء وقت للشراب والمتعة، فيأنسوا بمن يلاطفهم من الراهبات والقساوسة الشبان، رأت جولي هذا فنفرت وكانت عيون هؤلاء الغرباء المترفين قد تعلقت بها ولم يعودوا ينظرون إلا لها،

فتوجست منهم خيفة وراحت مسرعة إلى خبائها.

قهقه هؤلاء الزائرون لعلمهم أن المستجدات من الراهبات ينفرن منهم أول الأمر؛ ثم لا يلبث الطير أن يسقط في الشباك ليستسلم وينهمك في اللذات، بل ويطلب المزيد، ولم يدر بخلدهم أن جولي مختلفة، ولو أرادت هذا الطريق فقصر توما فيه علية القوم من الذين سحروا بها وتمنوا قربها.

لقد كان للأديرة ساعات يتنفسون فيها وأخرى يفتحون الباب للطرّاق من أصحاب اللهو، فيمضون وقتاً منعشاً في اللهو والسماع والمعاشرة ولذيذ الطعام والشراب، فيخلون في تلك الأوقات المرحة التي تجود بها عليهم دهاليز الكنيسة وغرفها بالزهرات الندية العطرات يجلون فيها الأبصار وما ران على القلب من هموم؛ فيبقى هذا مؤثراً فيهم لا يفارق خيالهم

حتى إنهم ليسجلون متعهم هذه بلا استثناء شعراً يُظهر ما داخلهم فيها من السرور والأنس ومباهج النفس ما لم يجدوه في غير هذا المكان، وهذا الشعر يتفوق بصنعته وجودته عن كثير من الشعر الوصفي للديار والمعارك والحروب، لأن الروح والهوى والجمال قد امتزجت به فخرج خفيف الروح والظل طروب المعاني قد شفّ بالنفس فأصبحت كالزجاجة لطفاً وصفاء، ولما طربت النفس بالحالة هذه تألق الشعر وطرب الوجدان وسما الفكر فأنطق اللسان، فهذا الأعشى صناجة العرب الذي سافر وتجول في البلاد، يقول في دير نجران:

وكعبة نجران حتم عليك..
حتى تناخي بأبوابها
نزور يزيداً وعبد المسيح..
وقيساً همُ خير أربابها

إذا الحبرات تلوت بهم
وجرّوا أسافل هدّابها
وشاهدنا الورد والياسمين..
والمسمعات بقصّابها
ومزهرنا معمل دائم
فأي الثلاثة أزرى بها
وكأس شربت على لذة
وأخرى تداويت منها بها

وقال عمر بن أبي ربيعة مؤجج العشق في الأفئدة والتجارب في هذا الفن:

سحرتني الزرقاء من مارون
إنما السحر عند زرق العيون
سحرتني بجيدها وشتيت
وبوجه ذي بهجة مسنون
كأقاح برملة ضربته
ريحُ جو بديمة ودجون

تردع القلب ذا العزاء ويسلي
برد أنيابها ردوع الحزين
وجبين وحاجب لم يصبه
نتف خط كأنه خط نون
فرمتني فأقصدتني بسهم
شك مني الفؤاد بعد الوتين

يونس يكشف الخطة لجليلو

عاش جليلو أياماً مع يونس وتعلم منه كثيراً مما عنده من معارف وثقافة واطلاع على أخبار الأمم، وما ذكرته الكتب المقدسة، وكان في نفس يونس شيئاً يخفيه ويريد أن ينفذه لكنه كان في شك من أمر جليلو؛ وتساءل:

هل سيتقبل هذا الأمر أم إنه سيعارض عند تنفيذه؟

وكان كلما أراد مفاتحته بالموضوع تراجع

وأمسك عن الكلام، لكن جليلو سهل المهمة دون قصد منه أو معرفة بما يدور في رأس يونس، فلما شكا ليونس حال خطيبته وأن توما قد أخذها منه فكأنما خلع بهذا قلبه، وأنه يود الانتقام من **توما** وأنه حضر إلى دمشق لأجل ذلك، لكنه وجد عوائق كثيرة وأن توما ليس بالرجل السهل إضافة إلى الحراسة المشددة حوله، و**جليلو** وحيد ينقصه المساعدة والتدريب، ثم فكر بالعرب لعلهم يحققون له ما يوصله إلى حبيبته **جولي**، ولكنه أيضاً لا يعرف من أين يبدأ، هل ينتظرهم إلى أن يفتحوا دمشق؟

وإذا دخلوها كيف يمكنه الاتصال بقائدهم ليشرح له ما هو فيه وما أصابه من توما؟

لكن من يدري ربما عَدُّوه من الأعداء وعاملوه كالآخرين يعني معاملة جيش منتصر على بلد مغلوب، إنه في دوامة ولا يعرف كيف يبدأ، ومن أين؟

أراد **يونس** أن يتوثق من كلامه وأنه فعلاً جادٌّ فيما يقول.

قال له: الأمر يسير، إن أردت أن تستنجد بهم لقضيتك فاخرج إليهم قبل دخولهم البلد وأعلمهم بأمرك.

قال جليلو: أنا مستعد ولكن كيف السبيل إليهم؟

رد يونس: سأفكر لك في الأمر اطمئن.

وأظهر يونس له أنه يفكر ويقلب الأمور، ويقول بصوت خافت يسمعه جليلو: هذا ممكن لكن فيه مخاطر، نخشى انكشاف الأمر وفي هذا القتل والصلب.. وفجأة قال يونس مظهراً ما أضمره:

اسمع يا جليلو، أنا أريد أن أساعدك، لكن الأمر فيه مغامرة، وتحتاج إلى القوة والثبات وإلى كتمان الأمر، فلو انكشف الأمر لتوما

فينبغي على واحد منا أن يتحمل المسؤولية كي يسلم الآخر لمتابعة الخطة، لا أن نسقط معاً فتفشل خطتنا وينتهي أمرنا.

استوضح جليلو عن الخطة، فأجابه يونس ليس لك الاتصال بالمسلمين إلا عن طريق نقب السور، دهش جليلو من سماع نقب السور، وارتسم على تقاطيع وجهه الاستغراب وحملق بعينيه وتمتم:

نقب السور! كيف لنا ذلك؟ هل ننقبه أمام الناس؟

فالمارة من هنا لا ينقطع مسيرهم حتى في بعض أوقات الليل، والحراس يتناوبون لحماية هذا الموقع.

رد يونس: إن جدار غرفتك التي أنت فيها الآن هو جزء من السور، فلن يرانا أحد ونحن ننقبه، لكن يتطلب منا مهارة في العمل وعدم

إحداث صوت أثناء قلع الحجارة كيلا يشعر أحد بما نعمل.

فهل أنت مستعد للعمل والمجازفة؟

وأن تقول إذا انكشف الأمر: إنك وحدك من قام بهذا العمل دون مشاركة مني أو علم بما قمتَ به؟

أجاب جليلو بلا تردد:

نعم مستعد لكل شيء؛ فالموت لا يهمني، لأن حياتي بلا **جولي** ليست الحياة التي أريد، وبطن الأرض خير لي من ظهرها.

قال يونس:

مد يدك إذاً.. اتفقنا وسأتدبر أمر أدوات نقب السور.

أحضر يونس الأدوات التي تساعد على نقب السور بسرية تامة وأدخلها بيته، ففيها المعاول والأزاميل والمطارق، وألبس الحديد

مكان الطَّرْقِ الجلود حتى يخفض من الصوت الصادر عن الهدم والنقب، وتناوب العمل مع جليلو، واستمرا به على أشده حتى آخر الليل، ومع بداية أول خيوط الفجر بدت كوة صغيرة جداً أظهرت الأرض خارج السور، فسدها يونس وأوقف العمل وقال:

سنتابع العمل غداً في أول الليل.

ثم أخذا قسطاً من الراحة وأمضيا اليوم في ترقب وقلق وهما يعدان الدقائق والساعات لكي تمضي مسرعة ويأتي الليل قبل أن يُكتشف أمرهما، ويونس يقرأ ويصلي ويدعو الرب بأن يوفق مسعاهما.

فيونس في نيته بعمله هذا نصرة الحق وتحقيق نبوءة الكتب المقدسة بالفتح.

وجليلو في نيته الرغبة في استعادة الحبيب المختطف جولي.

انقضى النهار وخيم الظلام من جديد، فبادرا في أول الليل بإتمام النقب بحيث يتسع لخروج رجل منه، ولما أتما ذلك قال يونس لجليلو:

ابق هنا أنت وسأخرج أنا للتفاهم مع قائد جيش المسلمين؛ لأنني أجيد العربية، فإن عندي لهم عرضاً يسرهم ويسهل عليهم الفتح، وسآخذ الأمان منهم لي ولك.

هز جليلو رأسه بالموافقة وقال له:

ليكن الرب معك.

خرج يونس من النقب وانطلق يطلب قائد جيش المسلمين، ورأى الحراسُ المسلمون هذا الرجل وهو يقصد معسكرهم مسرعاً فأوقفوه، لكنه بادرهم بالعربية:

لا تخشوا إني صديق، خذوني إلى قائدكم فعندي له أخبار تسره.

ثم فتشوه، فلما لم يعثروا معه على شيء يخشونه، أحضروه أمام خالد بن الوليد، فأخبره بقصة السور، وأنه بإمكان ثلة من رجاله أن يدخلوا منه إلى الدار التي يقيم فيها، فإذا ما اجتمعوا بعددهم وعدتهم فسينطلقون وفق فرقتين:

فرقة منهم تنطلق إلى السور ويتسلقونه من سطح بيتي ويقضون على الحراسة في أعلاه، فإنهم الآن في قلة من العدد بسبب العيد.

والفرقة الأخرى تتجه إلى الحرّاس على الباب الكبير، فيقضون عليهم ويستحوذون على مقاليد الباب ومفاتيحه فيفتحونه لكم.

سر خالد من هذا العرض وما قام به يونس، فلم يفوت الفرصة، ولكن ينبغي أولاً أن يستوثق من كلامه باختبار النقب والاطلاع على حقيقته.

فقال ليونس:

أنت تبقى الآن معنا حتى نرى صدق ما تقول.

ثم أرسل خالد من يستطلع خبر النقب، فعاد الكشافة ليؤكدوا صدق كلام يونس.

وبعد أن اطمأن يونس إلى موافقتهم طلب الأمان له ولجليلو الذي ساعده على النقب، وأنه الآن في انتظار وعد الأمان.

وافق خالد وأعطاهما الأمان، وقال:

ليس غريباً على من تعمق في الكتب السماوية أن يؤمن برسالتنا التي نبذل أرواحنا الآن لإيصالها للناس كافة، لننشر دين التوحيد والسلام، دين العبودية لله الواحد الأحد، ونمنع العبودية لغيره، فهو الخالق المستحق وحده للعبادة والتقديس.

إن مثلك الآن كمثل روماس صاحب بصرى الذي ساعدنا أيضاً ودخل في ديننا وهو الآن

يجاهد معنا، فكان وقع هذا الخبر على يونس مفاجئاً وساراً.

أجاب: إنه صديقي وأنا وإياه ننهل من مشرب واحد، لقد أسعدتني أيها القائد بهذا الخبر لطالما توافقت أفكارنا وآراؤنا.. الحمد لله.

ثم ودع يونس خالداً وانطلق معه الجنود بخفة وحذر، فدخل من النقب مائة مقاتل من ذوي الخبرة والمهارة العسكرية، ونفذوا خطة الاستيلاء على الباب وفتحه، وعلى السور في ارتقائه وتأمينه، ولما تم الأمر أعطيت الإشارة لجيش المسلمين الذي كان مستعداً للانطلاق، فتقدم نحو الباب دون أن يشعر بهم أحد من بقية جنود الروم، وما هي إلا لحظات حتى فتح الباب؛ فتدفق جيش خالد إلى الداخل وهم يكبرون ويهللون، فأسقط في يد الروم وانهارت المقاومة من جهة الباب الشرقي ولاذ جند الروم

بالفرار متفرقين في بيوت المدينة وأزقتها، ولما تقدم خالد إلى وسط دمشق فوجئ بأبي عبيدة يدخل دمشق من باب الجابية صلحاً يتقدمه كبار الشخصيات الدينية والسياسية الرومية، وكان قد عقد لهم صلحاً وأمضاه، فقد أمَّنهم على أموالهم وأنفسهم وممتلكاتهم لقاء دفع الجزية للمسلمين.

فما قصة أبي عبيدة مع الروم؟

أبو عبيدة على باب الجابية

لما اشتد الحصار على دمشق، طلب الأهالي من **توما** عقد الصلح مع المسلمين ووعدهم بشن حرب لا هوادة فيها لكي يطرد المسلمين وينقذ الشام من خطرهم، وقاد عدة غارات ضدهم فما أفلح في شيء منها، بل فقئت عينه وفقد الصليب الأعظم، وكادت الأقوات أن تنفد من خزائن المدينة، وهنا عاد أهل الرأي في دمشق إلى توما، وطلبوا منه أن يراسل الملك

هرقل لإرسال جيش لفك الحصار لكن تلك المحاولات صدت من قبل المسلمين وليس لهم من خيار إلا الاستسلام لشروط المسلمين في دفع الجزية أو استمرار الحصار وفتح دمشق عنوة.

فإن فتحت عنوة تصبح بلداً مباحاً للغازي، وعليه فإنّ حل الصلح على دفع الجزية هو الأنسب للمدينة، وفيه صون للنفس والمال والعرض والممتلكات، فطلب الوفد من **توما** الإذن لهم بالصلح بعد أن أعيتهم الحيل في صد المسلمين، فأذن لهم، فأتوا أبا عبيدة وفاوضوه في الصلح فقبل منهم، وكتب لهم كتاباً بذلك على أن يتسلم البلدة غداً بعد طلوع الفجر، ولم يُعلم أبو عبيدة قادة الجيوش على الأبواب الأخرى بما جرى قبل أن يتأكد من وفاء الطرف الرومي بما تم من الصلح.

وفي الموعد المحدد دخل أبو عبيدة دمشق بعد صلاة الفجر وأجريت مراسيم الصلح وتسلم

أبو عبيدة مفاتيح الأبواب، إذا به يفاجأ بجيش خالد بن الوليد يدخل المدينة عنوة من الباب الشرقي، وهذا التوقيت وهذه المصادفة لم تكن متوقعة لكنها كانت بالطبع لصالح أهل دمشق، وأبو عبيدة هو القائد الأعلى للجيوش، فرضخ خالد لقرار أبي عبيدة وتصرفه في إمضاء الصلح مع الروم، لكن خالد بن الوليد أراد أن يستثني من الصلح توما وقائده هربيس لما فعلاه بالمسلمين، فقال أبو عبيدة:

هما داخلان في الأمان ولا سبيل إليهما.

ثم أمر أبو عبيدة بالبدء في إحصاء السكان لتسلُّم الجزية منهم، ومن لم يرد البقاء في دمشق عليه أن يدفع الجزية وأن يخرج من دمشق آمناً لمدة ثلاثة أيام مع ما يحمله من متاع، لكي يسيح في الأرض ويجد المكان المناسب الذي يأوي إليه، وبعد الأيام الثلاثة يصبح حربياً حلال الدم والمال إن وُجد في دار المسلمين.

جليلو والبحث عن جولي

كان جليلو بعد أن نال الأمان من خالد يرافق جيش خالد، ولما علم بالصلح الذي تم مع الروم من قبل أبي عبيدة استبشر خيراً، فسارع إلى رفاقه الذين كانوا يخدمون في قصر توما، وطلب منهم أن يدخلوه القصر لكي يحرر **جولي** من توما، لكنه فوجئ بما أخبره به زملاؤه بأنهم لم يروا جولي في القصر منذ مدة ولا يدرون أين هي، فعاد أدراجه وهو مثقل بالهموم والأسى على مصير جولي، وقصد خالد بن الوليد، وكان خالد قد هدأ بعد ثورته مع أبي عبيدة وقوله له: بأن الروم قد خدعوه، لكنه نزل على رأي كبار الصحابة ورضي بما تم من صلح، لئلا يُسجَّل على المسلمين سابقة بأنهم نقضوا الصلح بعد إبرامه، فخرج بجنده خارج الأسوار مرابطاً متحسباً لأية مفاجآت قد تظهر، فهو قائد يمتلك كل الصفات القيادية

ولا يترك شيئاً للظروف؛ وإنما يحسب لكل أمر حسابه.

علم جليلو بمرابطة خالد بجنده خارج دمشق، فخرج يبحث عن معسكره حتى وصل إليه، ثم كلمه بشأن **جولي** وأنه ما أقدم على نقب السور ومساعدة يونس إلا لأجل تحرير جولي من توما، وذكر له القصة بإسهاب، فتفاعل معها خالد وأشفق على هذا الشاب خصوصاً؛ وأن **جولي** هي ابنة روماس الذي أسلم وقاتل مع خالد وأصبح صديقاً له؛ وأن جليلو هو ابن عمها، فقال:

لقد سمعت اليوم قصة عجباً فيها التضحية من أجل الحبيب، ثم قال له:

أبشر أيها المحب سأساعدك بكل ما أستطيع لكي تجد حبيبتك ابنة روماس وفاء منا لما قدمته لنا ووفاء لوالدها أيضاً، فابق معنا في

جيشنا، وسأوزع الجند على المنافذ والطرقات لكي نرصدها، فاستعن بالله ولا تقنط، وسأستدعي عمك روماس ليقيم معنا وأظنك مشتاقاً لرؤيته بعد غياب طويل، ثم أرسل إلى روماس من يحضره، فقد كان يقيم على باب توما في جيش شرحبيل، ولما حضر روماس كانت المفاجأة السارة بجليلو الذي تقدم وعانق عمه وقبل يديه، وبالمقابل كان روماس يقبله ويضمه إلى صدره مع سرور لا يوصف...

وبعد الانتهاء من هذا اللقاء الحار جلس مع عمه يقص كل واحد منهما خبره على الآخر ويتجاذبان أطراف الحديث.

سأله عمه بلهفة عن أخبار **جولي** وهل عنده علم عنها؟

فقص عليه جليلو خبرها كاملاً، لكنه افتقدها مؤخراً ولا يعرف شيئاً عنها، فقال روماس:

مالنا إلا المشاركة في رصد الطرقات وتحركات **توما**، لأن توما لن يخضع للإقامة ودفع الجزية أنفة وتكبراً، وسيغادر دمشق إلى بلاد الروم، أما أنت فاذهب وشارك في تحري توما ومن سيخرج معه إلى بلاد الروم، وأنا سأتابع مع لجنة الإحصاء ربما تكون جولي من بينهم.

توما وخيار الخروج

تجمعت أعداد كبيرة من رافضي دفع الجزية والإقامة تحت حكم المسلمين، فهم يودون الخروج من الشام إلى بلاد الروم استكباراً وأنفة من الخضوع للمسلمين رغم هزائمهم، ولولا رحمة المسلمين لما خرجوا سالمين، وكان من بين هؤلاء الرافضين توما وحاشيته، وكبار العسكريين أمثال **جرجيس**، وعدد كبير من الجنود، وعدد من كبار القساوسة والتجار، وقد

حملوا متاعهم على الخيل والبغال والعربات، فأفسح لهم المسلمون الطريق للخروج، لكن كان من شروط الصلح ألا يحمل هؤلاء من السلاح إلا قطعة واحدة؛ فمن حمل سيفاً لا يحمل رمحاً ومن حمل رمحاً لا يحمل سيفاً وهكذا، وهي لحمايتهم من وحش كاسر أو قاطع طريق، وفتش المسلمون المتاع لتنفيذ هذا الشرط، ومر موكب توما الكبير الذي حمل معه من المتاع والجواري والمال ما خف حمله وغلا ثمنه، وخضع للتفتيش كغيره، وجليلو يرى ويراقب بانتباه شديد كي لا يفوته أمر جولي، فهو لا يهمه المتاع والتحف والأموال؛ إنما كانت عيناه على النسوة مع توما، ودقق في وجوه النسوة فما تعرف على **جولي**، فقد تعهدت أمام البطريرك الكبير بأن تخدم الكنيسة بإخلاص وألا تتطلع إلى الدنيا وزينتها، فلما مرت من أمام حاجز التفتيش عرفته هي ولكن جليلو لم يعرفها، فلم يكن يتصور أبداً

أن تكون قد ارتدت ثياب الراهبات، لكنها لما تجاوزته خفق قلبها رغماً عنها فرفعت يدها بإشارتها المعهودة، فرآها جليلو وأسرع باتجاهها وأمسك بزمام دابتها وقال:

جولي! أين تذهبين؟

عودي إلينا فقد بذلنا جهدنا وغامرنا بأرواحنا كي نحررك أنا وأبوك.

لكنها ترددت والركب يمشي وهو متعلق بها، فقالت:

سلامي لك ولوالدي فقد وجدت نفسي في الكنيسة واعتزلت الدنيا، فقال:

إياك أن تستسلمي لليأس الذي دفعك لهذا التصرف، فعندنا ما هو أفضل للدنيا والآخرة، تعالي واسمعي منا ما استجد من أمرنا، وهنا انتبه توما، وقال:

دع الفتاة فلا شأن لك بها، فهي من حاشيتي وإلا فإنك إن أخذتها فهو الغدر وعدم تنفيذ الاتفاق الذي ضمن لنا الخروج بسلام.

وقع كلام **توما** على أذن جليلو كالصاعقة، وقال بغضب:

دائماً أنت العقبة فمتى سأتخلص منك؟

وإذا بخالد بن الوليد ـ وقد كان متخفياً يتابع هؤلاء المستأمنين الخارجين إلى بلاد الروم، ويرصد ما معهم من متاع فاخر حرم الصلح المسلمين من أن يكون غنيمة لهم ـ يجيبه:

لا تيأس يا فتى.. سيكون الخلاص منه قريباً إن شاء الله، فالتفت جليلو إلى مصدر الصوت لأن هذا الصوت ليس بغريب على مسمعه، فاقترب منه.. يا للمفاجأة إنه صوت

القائد خالد، فأقبل نحوه وهو دامع العينين، وقال:

أحقاً ما أسمعه؟

فجذبه خالد وضمه إلى صدره وقال له:

استعن بالله ولا تيأس، إن فرج الله قريب من المحسنين، فقال جليلو:

نعم، الاتكال على الله.. وأفوض أمري إليه.

إنني بمنتهى الخجل منك، وأنا باق على ديني لم أعلن إسلامي بعد، وقد أجلت ذلك إلى حين أنقذ حبيبتي لكي نعلن إسلامنا معاً؛ فلا أحب أن أسبقها في هذا الفضل العظيم، لكن المشكلة الآن أنها مقتنعة بما هي فيه، وما أدري ما الذي دفعها إلى الترهب والانقطاع عن الدنيا؟ هذه الدنيا الجميلة.. بسمائها وأرضها وأزهارها وبساتينها ونبع مياهها..

قال خالد: اعذرها.. لعلها أيست من لقائك.. ظنت أنك مت.. أو قتلت.. فلاذت بهذا الأمر ليعصمها مما هو أكبر..

لكن ألم تلاحظ إشارتها لك؟ فما أظنها الآن إلا وقد راجعت نفسها لما وجدتك، والله مقلب القلوب، وغالب ظني أنها سترجع إليك، فلن نتركها، وعلينا أن نستنقذها مما هي فيه بإذن الله.

قال جليلو:

وكيف أيها القائد؟

هي الآن في طريقها إلى بلاد الروم.

فمتى سنعثر عليها؟

أنشن حرباً أخرى لنفتح القسطنطينية؟

رد خالد: لا تعجل.. كل شيء بأوانه جميل.

لقد كان جليلو يفكر في استعادة **جولي**، وخالد يخطط لاستعادة هذه الأموال التي حُرم منها المسلمون وهي من حقهم.

ألم يفتح البلد بالسيف عنوة؟

لكنه لا يريد أن يخالف ما وقّع عليه أبو عبيدة، وما أعطاه من عهد وميثاق.

ولا يريد ـ كما أشار عدد من الصحابة ـ أن يلتبس الأمر على الناس فيظن هؤلاء الناس أن المسلمين لا يوفّون بالعهود، وعند ذلك فإن بقية المدن لن تتعامل مع صلح المسلمين وتعهدهم بالثقة المطلوبة، بل ستصر على المقاومة مهما بلغ بهم الجهد طالما أن الأمر سيان.

لأجل هذا صبر خالد والتزم بما أبرمه أبو عبيدة، فإذا كان جليلو يريد أن يسابق الزمن للظفر **بجولي** فإن خالداً يعد الدقائق والساعات لانقضاء المهلة الممنوحة لهؤلاء القساة المغادرين

إلى أرض الروم لكي يكون في حل من ملاحقتهم.

أراد جليلو أن يستقرئ ما نوى عليه خالد، لكن القائد العسكري كان يعد الخطة والجنود الذين سينفذونها بالكتمان، إنه العسكري المحنك، لقد اختار للمهمة التي تنطوي على كثير من المخاطرة جنداً عَرَف بأسَهُم وخبرهم في الميدان؛ من الذين يحبون المخاطرة ويسعون لها، أمثال ضرار بن الأزور، ورافع بن عميرة، والقعقاع بن عمرو التميمي، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعدد كبير من أمثال هؤلاء الأبطال الشباب الذين يهوون المغامرات.

كان جليلو حائراً متردداً بين خالد بن الوليد وبين صديقه يونس، يشكو أمره لهذا مرة ولذاك مرة أخرى لعله يسمع منهما ما يريحه إلا من كلمات مختصرة من خالد أراد أن يقوي بها عزيمته يدعوه فيها إلى الصبر ويحثه على

الاستعانة بالله الذي ييسر كل أمر عسير، لقد أعد خالد بن الوليد الخيل العتاق، وأمر بتضميرها لكي تقوى على قطع المسافات، فهو يعلم أن قافلة توما ستحث السير لتبلغ مأمنها في أنطاكية، فقد يدركها عند حدود تلك البلدة أو أدنى من ذلك، لكن إن حصل ما يعيق حركتها فلن تتجاوز شيزر، وهو الطريق الذي سلكه من قبل امرؤ القيس المسجل في شعره:

تقطّعُ أسبابُ اللبانة والهوى
عشية جاوزنا حماة فشيزرا

أما يونس فكان يطلب منه الصبر أيضاً ويقول له: لقد وعدك خالد بن الوليد ولن يخلف وعده، ومع ذلك سأذهب إليه وأذكره بما وعد، ولما التقاه يونس رحب به خالد وقال:

أهلاً بأخي الوفي يونس، إني لأحبك في الله، رد يونس وأنا أيضاً، فكيف لا

والنبي ﷺ لقّبك بسيف الله؟! إني أجد فيكم يا أصحاب محمد لمسة النبي الحانية ورائحته الزكية، وأرى قبساً من نوره في كل وجه من وجوه أصحابه البررة، فكم أنا سعيد أن أحياني الله لأراكم وأنهل من معين الإسلام الصافي ومن ورده الفياض، ثم إن يونس ذكّر خالداً بقضية جليلو وبما وعده من المساعدة لاسترداد حبيبته التي اصطحبها توما معه كأنها من بقية أهله، فوعده خالد خيراً وأن ما يسعى إليه هو أكبر من استرداد ابنة روماس، ولكل أجل كتاب، فاطمأن يونس وعاد ليبشر جليلو بأن خالداً لم ينس قضيته.

ثم بدا لجليلو أن يستعد مع الحملة التي ستطارد توما، وقال في نفسه لابد من خيل للمطاردة فإن لم يكن معي حصان فلن أشارك معهم، فأسرع إلى عمه وطلب منه حصاناً وسيفاً ليشارك في حملة المطاردة، فإن لم يذهب معهم

فإن الفرصة في استنقاذ **جولي** دون مشاركته ضئيلة، فأعطاه عمه حصانه وسيفه، وقال استعد لتنطلق معهم وكن يقظاً فلا تضيع هذه الفرصة، وإن اضطرك الأمر لأن تتابعها حتى القسطنطينية فافعل، فإنك ما زلت رومياً تجوب البلاد بلا خوف.

المطاردة

انقضت الأيام الثلاثة، فبدا لخالد أن توما ومن معه ربما يكونون قد دخلوا أنطاكية واحتموا بها، وأن اللحاق بهم ضرب من المغامرة الفاشلة، وأن الفتوحات الإسلامية في طريقها لفتح مدن الشام الواحدة تلو الأخرى وستكون أنطاكية من هذه المدن وسيلتقي ثانية مع **توما**، فلماذا العجلة والمخاطرة، هكذا بدا لخالد، ولما استبطأ **يونس** زحف خالد مع إلحاح **جليلو** ذهب مرة أخرى لمقابلته وتذكيره بالوعد، فقال خالد:

إن توما حذر ويخشى من المطاردة فلا أظنه الآن إلا وقد استحث الركب على الإسراع جهد الطاقة، وإدراكهم قد يكون مستحيلاً، وبيننا وبينهم ثلاثة أيام، فالفتوحات لن تتوقف وسنلتقي بتوما ثانية، وأبو عبيدة الآن يستعد للتوجه إلى حمص وربما قبلها إلى بعلبك، ولابد في نهاية المطاف أن نصل إلى أنطاكية وربما أبعد منها، قال **يونس**:

أيها القائد الذي عبر بادية الشام بأيام معدودة مع مشقة الزاد وقلة الماء وثقل سير الإبل، فنحن الآن في بلد المياه والزاد، فأعد كوكبة خفيفة من الفرسان، فإن ما تجري به في يوم يساوي ما تقطعه قافلة توما الثقيلة في ثلاثة أيام، فتظفر بالمال والنفائس التي حملها معه وهي من حق جند الفتح، وأنا سأذهب معكم وأدلكم على طريق مختصرة، وتلزمنا في الطريق للتمويه ثياب لخم وجذام كي لا يعترضنا في

أرضهم معترض، فأطرق أبو سليمان ـ خالد ـ رأسه قليلاً وهو يفكر، فقال:

ننطلق على بركة الله، ثم أرسل إلى الفرسان الذين وعدهم بحملة المطاردة فوجدهم على أهبة الاستعداد ينتظرون إشارته، وأسرع يونس فأخبر جليلو فحضر بحصانه الذي أعده للمشاركة في المطاردة واستأذن خالداً في السماح له بالمشاركة، فأذن له.

انطلقت الفرقة بألف فارس يتقدمها خالد بن الوليد وبجواره يونس الدليل الخريت في الوصول إلى أنطاكية بأقصر الطرق، وجَدّت الحملة في السير، فالفصل ربيعي مريح للمسافرين مع توفر المياه والمسايل والغدران النقية المياه، والعشب الندي، فلا حاجة للتزود بالماء والكلأ، فمرعى الخيل وافر بأطايب الأعشاب الربيعية الغضة، وعلى هذا فالحمل خفيف، وقد تسربل الجند بسربال لخم وجذام، فهي للتمويه ولاتقاء

لسعة البرد عند المساء، فكانت الرحلة ميسرة خالية من المعوقات والعقبات، وانطلق الفرسان هَدْباً فكأنما الألف فارس قطعة واحدة من الخيل تنتقل بوثبات مرسومة وخطوات موحدة، وهي أشبه بغمامة سوداء تمسح وجه الأرض؛ تدفعها الرياح برفق، مع ترتيل ودعاء وتسبيح وتهليل.

توما وصحبه

سار توما بقومه يومه الأول في غاية الحذر والإسراع، فقد كان في أرض تتبع المسلمين ولم يتوقف للراحة إلا بعد أن دخل الأراضي التابعة للدولة الرومية، وهنا اطمأن وأنزل الأثقال وأمر بالراحة التي امتدت طويلاً، ثم تابع المسير فمر قريباً من حمص ثم حط الرحال ثانية واستراح مع ركبه، فأشعلوا النار وذبحوا وطبخوا وأكلوا، ثم ناموا حتى أصبحوا وانطلقوا يومهم الثالث، فحطوا الرحال عند شيزر، وهنا فاجأتهم أمطار الربيع السخية فاحتموا ببعض الكهوف وسفوح

الجبال، ينتظرون توقف الأمطار التي أعاقت حركة دوابهم وعرباتهم حتى غاصت في الوحل وتوقفت عن الحركة، فكان لابد لهم من الانتظار لتحسن الجو وتماسك الأرض، فأضاعوا اليوم الثالث في هذه المنطقة، وفي صباح اليوم الرابع تحركت جموعهم ببطء غير معهود، فالأودية كثيرة وجريان الماء فيها مندفع بشدة يخيف العابرين من الانجراف مع هذا التيار، ولذلك كانوا حذرين من العبور الخطر، فجعلوا يتلمسون أماكن للعبور أقل قوة وخطراً، وهذا يحتاج إلى الوقت والجهد وعناء البحث عن المعابر الآمنة، ولما أصبحوا على بعد يوم من أنطاكية نزلوا بسهل فسيح مشمس، فأغرتهم الشمس أن يقيموا مخيمهم في هذا المكان وينزلوا فيه لنشر ثيابهم وأمتعتهم المبللة ليجففوها، وأمر توما الطباخين بإعداد الطعام وأن يعدوا مائدة ملكية تتناسب مع هذا الطقس البديع، فأنزلوا متاعهم وذبحوا ذبائحهم

وباشروا في إعداد الطعام، وقد أمنوا من الغارة لقربهم من أنطاكية، فقل الحذر والاحتراس؛ خصوصاً وأن موكبهم لم يتعرض منذ خروجهم من دمشق لهجوم من المسلمين أو من قطاع الطريق أو اللصوص، وأحسوا الآن أنهم في مأمن وفي نزهة ربيعية ينبغي ألا تفوتهم متعتها، فاختلط الرجال بالنساء ونصبت الموائد ووضع الشراب وغنت المغنيات ورقصت الراقصات وتبودلت الأنخاب والقبلات ونسوا أنهم قد خرجوا من هزيمة، وربما هذا لشعورهم بالنجاة من القتل أو الأسر، ثم أكلوا وشربوا وقالوا.

كل هذا **وجولي** في خلوتها زاهدة متنسكة في محرابها لا تجاريهم بحفلهم ولا تعبأ بما يفعلون؛ كأنها ليست منهم، فهي موكّلة بالصليب ونسخة من الإنجيل لا تفارقهما، وهذا جنّبها سلامة العرض والانسياق وراء الشهوات لما أبدت من التزام

بالقيم التي ترهبت من أجلها بخلاف بعض زميلاتها اللائي جارين الموكب فرقصن وغنين وقَبَّلْنَ وخرجن عن العرف والمألوف في جو خرج فيه الجميع عن المألوف، فقد عدوها مناسبة لن تتكرر فأباحوا لأنفسهم انطلاقة الهوى لبعض الوقت، ففي مثل هذه الحفلات تكثر التبريرات ويطرق داعي الغريزة الباب منبهاً النيام ليهبوا من رقادهم، فالقلب ينبغي له أن يخفق ولو لساعات قليلة بالحب لينتعش ويحيا ويتجدد شبابه، وإلا مات موتة لا رجعة بعدها، هكذا يروج أهل الشهوات والانحلال ويسوغون للناس هذا السلوك بأن انطلاقة النفس من قيودها هو المخرج لها من الكبت.

وكان المرح وثِقَلُ الطعام قد أطال قيلولتهم فامتدت حتى الأصيل، وما إن اصفر قرص الشمس وبدأت البرودة تسري حتى نبه بعضهم

بعضاً إلى النهوض وجمع الأمتعة استعداداً للرحيل، وصادف عند بدء قيامهم لهذه المهمة أنّ كلاً منهم كان يعمل على جمع ما يخصه من الأمتعة؛ إذ طلعت عليهم خيل المسلمين، فملأ المكان تكبيرهم وانقلب فرح القوم من وقع المفاجأة إلى صراخ واضطراب، ونهض **توما** صارخاً بهم ومحاولاً تجميع الجند حوله للمقاومة ولكن هيهات، فقد كان ينفخ في قربة مقطوعة، فتضيع صرخاته في الهواء ولا تجد من يستمع إليها أو يسمعها رعباً وخوفاً؛ فالنساء شردن في كل وجه، ولكن أين المفر؟

فالمكان ساحة مكشوفة مترامية الأطراف في مرج لا يخفي أحداً، فالشجر بعيد والغارة محيطة كالسوار بالمعصم، ودارت رحى حرب قوية فأعداد جند الروم بالآلاف، مقابل ألف من المسلمين، ولكن للهجمة والمفاجأة وقعها في النفوس، والكثرة لا تفيد عند التفرق وعدم أخذ

وضعية القتال المنظم، فأصبح قوم توما كالقطيع بلا راع، إلا من ثلة استجابت لتوما منهم القائد هربيس الذي كان قريباً منه، فكانت هي الحلقة القوية للمقاومة، وغابت الشمس وبدأت خيوط الظلام تخيم على الساحة وبعض النسوة مع الخدم استطاعوا الإفلات فسترهم الظلام عن العيون، وهرب عدد من الجند كانوا عند الخيل، فامتطوها فانطلقت بهم كالريح، لكنّ غالب الجنود الذين يقاتلون كانوا متفرقين فلم تجدهم شجاعتهم شيئاً ولاقوا مصيرهم في المعركة، وكان من بين الصرعى توما وهربيس وكبار القادة.

أما **جولي** فهي غريبة الأرض فلا تدري عن المكان ومسالكه شيئاً، فقد ابتعدت ما شاء لها أن تبتعد وألقت عليها كساء من الصوف الغليظ وأصبحت خارج أرض المعركة، وأقامت في مكانها تنتظر النهاية وهي خائفة ترتجف ولا تعلم

ما ستسفر عنه المعركة، وجليلو الذي كان يقاتل ويتفرس في وجوه النساء لم يحظ بمراده فحار في أمره وكاد أن يُجَن.

أين **جولي**؟

يصرخ وينادي بملء صوته، ولكن ما من مجيب فإن قعقعة السلاح وضوضاء المعركة حجبت الصوت عن **جولي**، وسأل بعضَ من لاقى من النساء عنها فأكدن أنها كانت معهن، وكانت في عزلة وانقطاع فلم تشاركهن في الحفل ولا بد أنها قريبة وقد تكون مريضة، ثم توقف القتال، فقتل من قتل وهرب من هرب، وقد ظفر المسلمون في المعركة أيما ظفر، وعلى وجه السرعة جمعوا الأمتعة والنفائس تحت جنح الظلام إلا من بعض الشهب التي أشعلوها ليتبين لهم المكان جلياً فلا يفوتهم شيء من المتاع، وبعد مسح المكان تأهبوا للرجوع بأقصى سرعة قبل أن تداهمهم نجدة

للروم فلربما تسلل بعض الجند الفارين لطلب النجدة، وأذن مؤذن القائد خالد بن الوليد بالرحيل، لكن جليلو طلب التمهل والبحث عن **جولي**.

فقال خالد:

إن سلامة جندنا مطلوب، ونحن في أرض الروم ولا مدد لنا إن أحيط بنا وقد نجحنا في مهمتنا ولا نريد الفشل بعد النجاح، وقد وعدتك باستعادة **جولي** وما زلت عند وعدي، ثم أمر الجيش أن ينسحب بقيادة القعقاع بن عمرو، ومعه الدليل يونس، وأبقى خالد معه عشرة من الفرسان الأشداء للبحث عن **جولي** واستنقاذها، فحملوا المشاعل وبدؤوا البحث عنها مع النداء من قبل جليلو، وهنا سمعت **جولي** صوت جليلو ولكن كانت تسمع معه أيضاً أصوات العرب، فتظن أنه في قبضتهم وأنها إن أفصحت عن نفسها فستقع أسيرة عندهم، فلاذت بالصمت،

لكن الصوت كان يقترب منها وشُعَل النار تضيء المكان قربها، فنظر جليلو إلى بياض لاح على ضوء الشعلة فظن أنها صخرة، ولكن خبرة ضرار في البراري شك في الأمر فتوجه إلى تلك الصخرة، فصاح إنها من متاع القوم ثم اقترب أكثر فعلم أنها كساء من نسيج الصوف وأن أحداً من الأشخاص قد تغطى بها، فصاح به وهو يشرع الرمح نحوه:

قم وإلا طعنتك بالرمح، وأسرع بقية الفرسان فأحاطوا به ولما كشفوا عنه الغطاء تبين أنها **جولي**، فصاح جليلو:

جولي وحق الرب..

إنها **جولي**، فقامت ذاهلة بعينين خائفتين، فأخذ يدها وقال:

هي والله **جولي**، لقد أحسنت بما فعلتِ.

ولكن لماذا لم تعلمي عن نفسك عندما

ناديتك؟.. لا بأس.. المهم أننا وجدناك، كل هذا وجولي ذاهلة صامتة لم تنبس ببنت شفة، فقال خالد:

أمتأكد أنها **جولي**؟

قال جليلو:

نعم هي **جولي** وحق الرب.

قال خالد: الحمد لله أننا لم نتأخر في العثور عليها، احملوها على إحدى الدواب ولنغادر المكان لعلنا نلحق بإخواننا، وهنا نطقت **جولي** وقالت:

أنا لا أريد العودة معكم، لقد غيرت حياتي ولم تعد تناسبك يا **جليلو**، إلا إذا بقيت معي ودخلت في الرهبانية فنكون كلانا في خدمة الرب.

قال **جليلو**: أجلي هذا الموضوع، ولن أفعل إلا ما يرضيك والآن علينا الذهاب مع

الركب وبقاؤك هنا في هذا الليل خطر عليك، تعالي يا حبيبتي وأراد ضمها إلى صدره ليؤنسها لكنها دفعته وقالت:

لا، أنا نذرت نفسي للرب، فقال خالد: لا تخافي أنت إن شاء الله في أمان معنا، ووالدك في دمشق بانتظارك وهو في غاية الشوق إليك ويود أن يراك كي تعودوا جميعاً إلى بصرى بلدكم ومرتع صباكم، هيا يا صغيرتي.

استجابت **جولي** لطلب خالد، فقد نزل كلامه عليها مهدئاً لروعها ومطمئناً لمصيرها، فأزال عنها الخوف والرهبة من الموقف الذي عاشته في هذه الساعات العصيبة من المعارك والقتل التي أثرت في نفسها، لكن ذكر والدها وأنه بشوق إليها وهي مشتاقة إليه كذلك؛ جعلها تثق بكلام القائد وأنه على صلة بوالدها.

العودة ومفاجآت الطريق

عاد هذا الركب الصغير مستحثاً الخطا ليدرك الكتيبة بقيادة القعقاع، فقد كان إحساس القائد أن الصعاب ستواجههم في طريق العودة، وأن الروم سيطمعون في التصدي لهذه القلة المتوغلة في أراضيهم والمنقطعة عن المدد وإبادتِها، رداً على الغارة التي قاموا بها، وأنهم إن فعلوا ذلك سيرفعون من معنويات جنودهم المنهزمين الذين لم يذوقوا طعم النصر في كافة مواجهاتهم مع المسلمين، لقد كان هذا فعلاً ما يدور في أذهان الروم، فيوم أن وصل الفارون إلى أنطاكية وخبروا الملك عما حصل لهم وأن توما وهربيس أصبحا في عداد القتلى وعلى مقربة من أنطاكية، وأن سيطرة المسلمين كانت لا تزال في حدود دمشق وأنهم في أرض غير أرضهم وبإمكانهم قطع الطريق عليهم وإبادتهم، أرسل هرقل رسائل عاجلة إلى المدن المتوقع المرور

بقربها، كالمعرة وشيزر وحماة وحمص، لتشكيل فرق لاعتراض هذه الكتيبة ومطاردتها والإجهاز عليها.

سرى خالد بن الوليد بمن معه ليلاً وعند الصباح لجأ إلى مكان آمن في التلال بعيداً عن الأنظار، وعند الاستراحة كان النقاش يدور بين **جولي** وجليلو حول الإسلام والمسلمين، قال جليلو:

كيف رأيت هؤلاء القوم؟ ردت **جولي**:

أراهم يعاملوننا بلطف كأننا أبناؤهم.

أرأيت ما يريبك منهم؟

لم أر نظرة ريبة من أحدهم تجاهي؛ فأنا مطمئنة بينهم.

ونظرتهم لنا نظرة عطف أبوية، وهم يصلون ويتهجدون، ويتلون كلاماً جميلاً رغم أني لا أفهم ما يقولونه تماماً.

قال جليلو: إن والدك كان يقرأ في الكتب القديمة التي بشّرت بهم، وأنهم أتباع النبي الخاتم الذي بشر به عيسى، فهم أهل دعوة إلى الله وتعبد، ولقد دخل والدك في دينهم طائعاً مختاراً لما عرف وتأكد أنهم أصحاب النبي الذي بشر به عيسى، فإن كنت تريدين التقرب إلى الله والخدمة وقصد الثواب فادرسي دينهم وتعاليمه، وانظري فيه جيداً فإن وجدتِ فيه ما يملأ القلب بالتقى والطهر والتنسك والعفاف فلا تتأخري في الدخول فيه، ولقد دعوني إلى الدخول في الإسلام فوعدتهم أني سأفعل ذلك حين أحررك من أسر توما، وقلت لهم:

ربما نفاجئكم في إعلان إسلامنا معاً.

قالت **جولي**:

لا تتعجل.. علينا أن نجتمع بوالدي فهو خير من يرشدنا إلى الحقيقة واختيار الصواب.

قال جليلو: هذا زينة العقل منك، فأنا معك فيما تقررينه.

تبسمت **جولي** وهي تخفي شيئاً من وجهها، مع نظرات متفحصة لردة فعل جليلو، لقد عاد قلبها للخفقان، ولذكريات الحب مع جليلو، وتأكدت بأن جليلو كان طول هذه المدة معها يتابعها ويسعى إلى استنقاذها معرضاً نفسه للخطر من أجلها، لقد ظلمته لفترة من الزمن وظنت أنها أصبحت وحيدة، وأن من كانت تعشقه وتحبه قد تخلى عنها، لقد كانت مخطئة وعليها أن تعتذر من جليلو وتنتهز الفرصة الملائمة لذلك، فقد ترسخ حبه عندها أكثر من ذي قبل ولولا حبه لها لما كان اليوم هنا في هذا المكان مخاطراً بنفسه لاستنقاذها وحمايتها.

وبينما هما في هذا الحديث نادى القائد بالاستعداد للرحيل..

انطلق الركب مُجِدّاً في السير وعليهم ملابس السفر لقبيلتي لخم وجذام التي تخفي الدروع والسلاح، ومع ذلك فإن العيون التي بثها ملك الروم للظفر بالقوم كانت لو شاهدتهم لعرفتهم فهم لا يخفون عليها، فالخيل خيل حربية لا خيل سفر وتجارة، ووجوه الفرسان تدل على أصحابها المقاتلين، فهم ليسوا بالفلاحين ولا بالتجار، ولا بعابري الطرق، فملامح كل من هؤلاء مختلفة والعيون ليست من الغباء بحيث لا تفرق بين هذه الفئات، بيد أن هذا التخفي من باب الأخذ بالأسباب.

ولما اقترب الركب من حمص مبتعداً عن القرى وأماكن السكن لم ينفعهم هذا الحذر، فالعيون الراصدة رصدتهم فأعدوا لهم كميناً، ولما اقتربوا من الكمين طلع لهم ما يقرب من مائة فارس فأحاطوا بهم، ولما شعر خالد بن الوليد بالكمين طلب من جليلو وجولي الهرب

وأن يفتعلوا أنهم كانوا في الأسر فأفلتوا من آسريهم - وهم من الروم - وبذلك يسلمون من الخطر، ونفذ جليلو على كره منه ما طلبه منه خالد، وقال له:

إن التقيت بكتيبتنا فأخبرهم عن حالنا، إن استطاعوا مدنا، واعتمادنا في كل الأحوال على الله فإنه لن يخذلنا وهو ناصرنا إن شاء الله، أسرع وسر على بركة الله مع حبيبتك **جولي** واعلم أننا قد وفينا لك بالعهد.

شكل خالد بن الوليد مع رفاقه الأبطال حلقة متماسكة، فلن يستطيع أن ينفذ إليهم إلا مثل عددهم، وتطاعنوا مع الروم فجندلوهم الواحد تلو الآخر واستمر القتال طويلاً وصبر المسلمون والمدد يأتي للروم فرادى وجماعات وخالد وصحبه صامدون، فقد تكاثرت حولهم الجثث التي فُلقت هاماتها أو تطايرت رؤوسها، وكادت القوى أن تضعف لطول المصاولة؛ لكن

خالداً كان يحمسهم بالصبر والصمود، وألا يفتروا أو ييأسوا من مدد الله، وقد علت أصواتهم بالتهليل والتكبير والطوق حولهم محكم شديد فقد طمع الروم بالانفراد بهم وقتلهم أو أخذهم في نهاية الأمر أسارى، لكن أمر الله هو الأمر وتدبيره هو التدبير، لقد عادت الكتيبة لما أخبرهم جليلو بالكمين وهم يتسابقون على مطاياهم لنجدة خالد ومن معه، فوصلوا في الوقت المناسب فأحاطوا بفرسان الروم وتناوشتهم السيوف والرماح، فانجلت المعركة عن نصر مبين للمسلمين والقضاء على هذه الشرذمة من الروم، ثم تابعوا المسير متجاوزين حمص، ولما اطمأنوا بابتعادهم عن الخطر حطوا الرحال وأراحوا الخيل واستراحوا هم أيضاً من هذا السفر المضني والمعارك التي خاضوها، وكانت كلها ـ والحمد لله ـ مظفرة مع سلامة الفرسان المقاتلين الذين عادوا سالمين كأنهم كانوا في نزهة إلا من

جراحات لعدد منهم اعتادوا عليها في المعارك وهي لا تلبث أن تبرأ، ألم يقل خالد بن الوليد يوماً:

إن في جسمي مائة من الجروح ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم؟

هكذا هم المقاتلون الأبطال.

جولي تتعجب

كانت جولي في كل استراحة أو مبيت في الطريق تناقش جليلو عن مشاهداتها لكتيبة المسلمين المرافقة وعن سلوك هؤلاء القوم، وتتعجب:

أهم من البشر أم من الملائكة؟

تعجبتْ من الحب والإيثار فيما بينهم.

من صَلاتهم وتهجدهم في الليل.

من ترتيلهم للقرآن الكريم.

من معاملتهم لها ولجليلو.

وأضافت: لقد أنستُ بهم وسكن قلبي معهم.

إن كانوا في القتال فهم المقاتلون الأبطال.

وإن كانوا في السلم فهم مثال في الأخوة والوئام والمحبة واحترام بعضهم لبعض.

وإن كانوا في العبادة فهم الرهبان حقاً، خشوع وصلاة وذكر وابتهال.

وإن كانوا في العمل عملوا جميعاً قائدهم ومقودهم، ففي إعداد الطعام كلهم يعمل، ما فيهم الجالس المتواكل المنتظر ليقال له تفضل إلى الطعام.

لاشك أن دينهم هو الذي علمهم ذلك.

ولاشك أن نبيهم كان القدوة في ذلك فأخذوا عنه.

لقد قلتَ لي يا جليلو نقلاً عن والدي:

إن أكثر هؤلاء الجنود لهم صحبة مع النبي محمد، لذلك أرى في وجوههم النور الذي نقل إليهم عن نبيهم، لقد تعلمت في الكنيسة أن المسيح كان يمسح وجوه الحواريين فتضيء..

أنبيهم حي يا جليلو؟

أجاب جليلو:

قيل لي بأنه انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل خمس عشرة سنة، وقبره بالمدينة التي هاجر إليها ونشر فيها دعوته، وفيها الآن خليفته الذي يسيّر منها الجيوش لفتح البلاد ونشر الإسلام.

أقرأت يا **جولي** عن غزاة أو فاتحين يعرضون الصلح قبل بدء القتال ولا يطلبون سوى الدخول في الإسلام، وهم لا يريدون مالاً ولا متاعاً، فإن أبى أعداؤهم الاستجابة إلى مطلبهم

الأول طلبوا منهم دفع الجزية لقاء الحماية، وفيها إعطاء الفرصة للذين لم يعرفوا الإسلام أن يتعرفوا عليه ويدرسوه، فإذا أعجبهم ودخلوا فيه حطوا عنهم الجزية، وأصبحوا لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين إخواناً متساوين، فالجزية التي يتحرج من دفعها كثير من المغلوبين هي الحل الوسط لصالح المغلوبين، تصوري لو قال الغالب:

الإسلام أو الموت.

كيف يدخل امرؤ كان في دين سماوي مقتنع فيه في دين لم يعرفه ولم يدرسه متأنياً؟

ويزداد عدم فهمه له إن كانت لغته غيرَ لغة العرب!

لذلك دفع الجزية حل وجيه أنقذ الرقاب من القطع، ومن لم يهده الله للإسلام؛ فإنه بدفعه الجزية يحافظ على نفسه وعلى معتقده.

لا إكراه في الدين، هذا مبدأ مهم من مبادئ المسلمين.

وحتى الجزية فهي ليست بالغرم الثقيل، فبمقدور كل إنسان أن يدفعها، وعلمت أن المسلمين يُعفون الفقراء من دفعها، بل ويعطون مساعدة للذمي الفقير الذي يعيش بينهم، وسترين دمشق بعد أن دخلها المسلمون أنها كما هي لم يحدثوا فيها أي تدمير أو تخريب، فهي الآن كما كانت عليه من قبل، ببيوتها ودورها وبساتينها، وكذلك بصرى وكل المدن التي فتحوها، ويقولون:

إنَّ النبي محمداً ـ ﷺ ـ أُرْسِل إلى كافة البشر لإنقاذهم من التيه والضلال إلى الإيمان بالله الواحد الأحد لكي يسلكوا طريق الخير، ويكون مآلهم في الآخرة الجنة.

لقد بدأت الدعوة بالعرب لأن النبي ظهر

بينهم واختاره الله منهم، وبعد أن دخل الجميع في الإسلام أصبح لزاماً عليهم تبليغ الدعوة للآخرين، وهي أمانة حملوها فإن لم يفعلوا ذلك كانوا مقصرين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٥]، وبأداء هذه الأمانة يعذرون أمام الله بأنهم بذلوا الدم والجهد والمال ليوصلوا هذه الدعوة إلى الأمم، فآمن من آمن وكفر من كفر، وما على المحسنين بعد ذلك من سبيل.

قالت جولي:

ونحن كذلك إذا آمنا نصبح مثلهم وعلينا مسؤولية التبليغ!

قال جليلو:

هذا صحيح، كل مسلم عليه أن يتحمل هذه المسؤولية ويحمل عبء التبليغ بما يستطيع، فمن آمن من غير العرب عليه مسؤولية تبليغ قومه

فهو أقدر على القيام بهذه المهمة بينهم، لأنه يعرف لغتهم، أما قرأت مسؤولية الحواريين بعد عيسى؟ فقد انتشروا في البلاد كلها وبلغوا الدعوة فكان الانتشار لها في هذه الأقطار.

قالت جولي:

يراودني سؤال لكن لا أدري إن كان في محله.

رد جليلو: قولي، إننا نتبادل الحديث ريثما ينادى بالرحيل.

قالت: طالما أن الدين الذي أتى به عيسى قد انتشر وهو دين السماء فلماذا جاء الإسلام ليزيحه ويحل محله؟

أما كانت رسالة عيسى على الحق؟

قال جليلو: كلام جميل ولكن جوابه ليس عندي، فأنا ما زلت ألتقط معلومات من هنا وهنا عن الإسلام، فاسألي أباك وأعتقد أن

الجواب عنده وإلا لما كان غير دينه وهو العلامة العارف.

وهنا نادى المنادي بالاستعداد للرحيل.

العودة إلى دمشق

عادت حملة خالد بن الوليد المظفرة إلى دمشق وهي محملة بالغنائم، فاستقبلهم أبو عبيدة بالبشر والترحاب، وكان رضي الله عنه قد بات مدة غيابهم في غاية القلق عليهم، يركب حصانه وينطلق خارج دمشق يعتلي تلاً وينظر على مدى الرؤية فلا يرى ما يدل على قدومهم من غبار أو جلبة، وإذا ما رأى قادماً من جهة الشمال توقع أن يكون حاملاً لرسالة من قبل خالد، فيتجاوزه ماراً وليس عنده من أخبار الكتيبة شيء، فتبقى أخبار الحملة عند عالم الغيب، ثم يلجأ لرب العالمين بالدعاء لهذه الكتيبة بأن ترجع بالسلامة والنصر، وكان يقول:

يا رب إنه سيفك وسيف الله لا ينكسر، أعده ومن معه بالسلامة، وكحلْ عينيَّ برؤيتهم.

لقد استجاب الله لدعاء أبي عبيدة، فعادوا سالمين غانمين، وكانت المفاجأة السارة في بكور أحد الأيام وقبل أن يخرج أبو عبيدة كعادته بأن تدق هذه الكتيبة باب الجابية، ففتح الحراس لها الباب ونادى منادي البوابة:

أن قد عاد خالد بن الوليد. وكررها، وجهر بها كل من سمعها لتصل إلى كل أرجاء دمشق.

وما إن تناهت هذه العبارة إلى مسامع المسلمين حتى امتلأت دمشق نداء وبشرى بعودة القائد المظفر، فأسرع الناس إلى لقائه شيباً وشباناً، فكانت الفرحة الغامرة وكلمات الشعر الهزجية في استقباله، وخرج أبو عبيدة حاسراً من شدة الفرح، فتلقى خالداً وضمه إلى صدره وقال:

أشغلت قلوبنا عليك يا أبا سليمان..
الحمد لله على عودتك بالسلامة، وقابله خالد بالمثل وقال: أبشر يا أمين الأمة، لقد كانت مغامرة ناجحة، وها قد استعدنا الغنائم للمسلمين، فقسمها كيف تشاء، فرد أبو عبيدة: سلامتكم هي الأهم، ثم سلم على بقية الجند، واقترب من جولي وجليلو، وقال له:

الحمد لله، ظفرت الآن بالحبيب الغالي، ووفى لك خالد بما وعد فهل ستوفي بما وعدتَ؟ تذكيراً منه بأن يعلن إسلامه، فأبو عبيدة حريص كل الحرص على دخول الناس في الإسلام، وما وفاؤه لأهل دمشق بالصلح والحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم إلا ترغيباً منه لهم باعتناق الإسلام، فتبسم جليلو وقال:

سأوفي بما وعدت إن شاء الله.

قال أبو عبيدة:

إن والدها لفي شوق للقائها فلا تتأخر عليه؛ إنه مع المرابطين على باب توما، وسنحتفل بكما قريباً إن شاء الله.

انطلق جليلو مع جولي إلى باب توما للبحث عن عمه روماس، وبعد التقصي أخبر أنه يقيم عند صديقه إيليا، يعيدان ذكريات الماضي ويتذاكران في أمر جليلو وجولي والحب العذري الذي قام بينهما، وأنه كان متعلقاً بها، ولم يستسلم أو ييأس عندما زفت إلى توما، بل تبعها وقد عزم على استنقاذها، وها هو ذا يذهب مع كتيبة خالد لاستعادتها، فقد أيقن روماس بأنها قد خرجت مع توما وأنه لما سجل أسماء من تبقوا في دمشق من أهل الذمة كباراً وصغاراً لم يشاهد جولي، فتأكد أن توما قد اصطحبها معه، ثم جاء جليلو وأكد له خروجها مع توما لقد كان دائم التفكير بحالها مشفقاً لمصيرها ويدعو الله أن يعيدها إليه ويهديها كما هداه الله.

أما مريم زوجة روماس فقد كانت مرافقته ضمن الجيش الذي انضم إليه وكانت مع النساء تقوم بخدمة الجيش من إعداد الطعام وجلب المياه ومداواة الجرحى، وكانت تلتقي بين حين وآخر بزوجها روماس تسأل دائماً عن أخبار جولي إن كان قد نما إليه علم عنها، لقد تأقلمت مريم مع وضعها الجديد مع النساء العربيات ورأت منهن تمام التدين والأخلاق والعفاف وصون العرض وصدق الحديث؛ وحسن التبعل للأزواج؛ يعملن بجد وإخلاص عابدات ذاكرات تاليات للقرآن، فحفظت منهن كثيراً من قصار السور، وأخذت عنهن كثيراً من الفقه والأحكام العامة والخاصة بالنساء التي تهم المرأة المسلمة والفرد المسلم في مسيرة حياته ليكون مع الله يتقرب إليه بالعبادات المشروعة وأدائها على أصولها، فكانت مريم عندما تلتقي مع زوجها روماس تخبره بما تعلمت ويخبرها هو أيضاً بما

تعلم واكتسب، حتى كانت هذه الأسرة الكريمة مثالاً يحتذى للداخلين في الإسلام.

إن خبر عودة كتيبة خالد قد تأخر وصوله لمسامع ذلك الحي، حي توما، فكان قدوم جليلو وجولي إلى بيت إيليا مفاجأة سارة لروماس، فاستقبلهما بالأحضان ودموع الفرح قد انهمرت من عيني روماس وهو يقبلها ويمسح شعرها بوله الوالد وعطف الأبوة، فقال:

وأخيراً عدت إليَّ يا حبيبتي، يا الله ما أكرمك، ويقول:

لقد كانت تعتريني ساعات أفقد فيها الأمل بهذا اللقاء فتنهمل مني الدموع وأشعر بأن الأمر بعيد بعيد، ثم أجدد الأمل وأبعد التشاؤم وأقدم التفاؤل فأناجي الخالق وأتوكل عليه، وأقول: ليس بمستحيل على ربنا أن يعيدها إلي، فأفزع إلى الصلاة وأقول: يا من أعدت يوسف إلى أبيه

أعدها إليَّ سالمة موفورة الصحة والعافية.. يا الله، ما أحلى اللجوء إلى القوي الخالق العظيم مفرج الكروب ومجيب الدعوات:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦] ثم سلم بحفاوة على جليلو وقال:

أنت البطل، وستكون جولي بإذن الله زوجة لك تكملان مشوار الحب وبناء أسرة مكافحة لها قصتها العجيبة التي تروى مدى الدهر.

أما مريم التي كانت تعد مشروباً ساخناً في المطبخ فإن غريزة الأمومة ورهافة الإحساس جعلاها تشم رائحة جولي وتحس بأنها حاضرة، فتقدمت بهذا الإحساس تستطلع الخبر وهي بين الأمل والرجاء، ما بين مصدقة لما داخلها من شعور أو مترددة لأنها كانت لا تفارق ذاكرتها،

تذكرها في صحوها وأحلامها، وعندما ترى مَنْ في مثل سنها، فتلجأ إلى الله بالدعاء بقلب كسير ودموع فياضة، ثم تترك الأمر لمدبر الكون ولما يشاء ويريد، لكنها هذه المرة كان إحساسها في محله، ومع اقترابها من المجلس تَوَافَق هذا مع سؤال جولي عن أمها، فدخلت وهي تجيب قبل أن يجيب روماس:

أنا هنا يا حبيبتي أنا بخير وشوقي إليك ما فتر ولا غاب.. ثم أخذتها إلى صدرها وهي تقبلها من وجنتيها ومن رأسها، فكان لقاء مؤثراً ذرف منه الحاضرون الدموع لمشهد الشوق وحرارة اللقاء وعطف الأبوة وحنان الأمومة.

وبعد تناول المشروب الساخن المؤلف من زهور الشام ونباتاتها البرية المفضلة في الشتاء وفي الربيع المقاومة لنزلات البرد، سمع روماس أذان الظهر، فكان يردد مع زوجته ما يقوله المؤذن، ثم هب للوضوء وكذلك فعلت زوجته

مريم، وأديا صلاة الظهر وعيون جولي وجليلو ترمقهما وقد خيم الصمت لدقائق، وبعد أن أنهيا الصلاة التفت روماس إلى جليلو وقال:

أما آن لك أن تنطق بالشهادتين وقد رأيت فضل ربك عليك؟

قال جليلو: إن الإيمان بقلبي وإن لم يفصح الآن عنه لساني؛ لأنني أنتظر أن تشاركني في الإعلان عنه رفيقة دربي جولي، بهذا أخذت العهد على نفسي.

ردت جولي: إني مقتنعة حتى الآن بنسبة كبيرة في هذا الدين، وأنا في كل دقيقة تمر بي أقلّب الأمر ولم يعد هناك مانع يمنعني إلا استفسارات أريد ممن يعرف أن يوضحها لي.

قال جليلو: أنا أعرفها وقد سبق أن قلت لك:

إن والدك سيجيبك عنها.

قال روماس:

اسألي يا ابنتي عما بدا لك وسأجيبك بصدق ووضوح لا خفاء فيه، وإن عجزت فهناك الصحابة الذين يجيبون عن كل سؤال فهم معنا وقريبون منا نذهب إليهم ونستفيد من علمهم.

قالت جولي: إذا كان دين المسيح سماوياً كما نعتقد فلماذا التغيير بدين سماوي آخر، ألا ينبغي أن يكون المصدر واحداً وبالتالي الاتفاق في المنهج والأحكام؟

أجاب روماس: تفكير سليم، نحن حتى الآن نبتعد عن بدء ظهور دعوة عيسى أكثر من ستمائة عام، وقد أخذت مجالها في الحكم والتطبيق والأتباع، ولم تأت رسالة أخرى من السماء طوال هذه المدة، علماً بأن دعوة عيس أيضاً كانت تجديداً لدعوة موسى عليه السلام، لأنه ظهر فيها التحريف والتبديل وامتدت لها أيدي

أحبار بني إسرائيل فحذفوا وأضافوا ما يوافق هواهم، وفي الدين المسيحي، مع هذه المدة الطويلة حصل أن امتدت أيدي بعض الرهبان بدس وتشجيع من الحكام ليبرمجوا الدين وفق هواهم من جهة؛ وإحداث بلبلة وانشقاق من جهة أخرى بين أتباع هذه الديانة ليفرقوهم شيعاً، فحرفوا في أساسيات الاعتقاد، بأن أخرجوا بشرية عيسى من الأصل وحولوها إلى ألوهية، فمنهم من قال:

المسيح ابن الله.

ومنهم من قال: الله ثالث ثلاثة، أب وابن وروح القدس.

ونشروا هذه الدعوات بقوة السلطان والسيطرة على الكنيسة، وبقي صوت الحق كامناً في صدور الرهبان المنقطعين بحق إلى الله، وفي عدد من نسخ الكتاب المقدس الإنجيل الذي كان

بعيداً عن متناول هؤلاء، فلم تصله يد العابثين، ومنها كتب عندي تقول بهذا، فلما خَفَتَ صوت الحق لمدد طويلة والتبس الأمر على الأجيال الجديدة، وعلا صوت الباطل الذي أصبح ينطق باسم أتباع عيسى، بعث الله النبي الخاتم إنقاذاً للبشرية ليجدد للناس دينهم ويعرفهم الحقيقة ويصحح لهم المفاهيم؛ بأن الله واحد لا شريك له، ومع تقدم الأمم جيلاً بعد جيل كان التحديث في الأحكام في كل أمة عن التي سبقتها؛ تمشياً مع التطور الفكري والمعرفي للإنسان وتزايد حاجات الناس في التعامل، وتحول المجتمعات القروية المنغلقة إلى مدن كبيرة منفتحة هي بحاجة ماسة إلى تطور التشريع، وأعني بالتطور، تطور الأحكام التي تغطي حاجة البشرية المتزايدة والمتشابكة اجتماعياً واقتصادياً وحضارياً، أما في المعتقد، فرسالة الأنبياء منذ خلق الله آدم وبعثه نبياً فهي في العقيدة واحدة تدعو الناس لعبادة الله

الواحد خالق الكون ومبدعه منزّهاً عن الشريك والصاحب والولد، وهذه سنة الله في خلقه ليقيم الحجة على الناس، فهناك الحساب وهناك الجنة لمن كان على الحق، والنار لمن غيَّر وبدل وأشرك مع الله إلٰهاً آخر.

فسنة الله في خلقه؛ أنه كلما فتر الناس في العبادة وأدخلوا فيها ما ليس منها وابتعدوا عن الطريق القويم وأشركوا مع الله آلهة أخرى واسترسلوا في هذا الضلال؛ جدد لهم الدين بإرسال الرسل لهدايتهم إلى الصراط المستقيم، ليرشدوهم ويبينوا لهم خطأ مسلكهم ومدى انحرافهم عن جادة الصواب، فهذه رسالة الأنبياء على مر الزمان، وتنتهي عند النبي الخاتم محمد ﷺ، فعصرنا الآن سيشهد تقدماً علمياً وفكرياً كبيراً مع تقدم في البحث والتدوين وبروز علماء عاملين أتقياء يرثون الأنبياء على مدى ما تبقى من هذا الزمان بحيث لا يمكن لأحد مهما

كانت قوته وسلطانه أن يغير في هذا الدين، أو أن يدخل فيه شيئاً ليس منه، فسينكشف أمره ويبوء بالفشل والخزي، ويخرجه الناس من هذه المسيرة المباركة ويُلقى في سلة الإهمال والنسيان، فقد ادعى مسيلمة الكذاب النبوة عقب وفاة النبي ﷺ، فسفَّه المسلمون رأيه وقوله وكشفوا كذبه فهوى واندثر كأن لم يغن بالأمس، وسيبقى الإسلام ظاهراً يحمل مشعل الحق إلى أن تقوم الساعة.

جولي: وما علمك يا والدي أن هذا العصر سيكون عصر نهضة وتوثيق للعلم؟

روماس: سؤال وجيه، إن أول سورة نزلت في القرآن الكريم هي سورة القلم ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ١ ـ ٤] فهذه فاتحة توجيه لمعالم العصر القادم، عصر العلم والتدوين بالقلم، وقد ذكر لي من التقيته من

الصحابة وحَفَظَةِ القرآن، أن هناك آيات كثيرة ورد فيها: العلم والعلماء والعالمون، وحتى في حالة الإقراض بين رجل وآخر حثهما القرآن على توثيق عملية الإقراض بالكتابة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولهذا كانت رسالة النبي محمد ﷺ الرسالة الخاتمة إلى أن تقوم الساعة، وقد وثقها القرآن الكريم بما لا يدع مجالاً للشك: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ـ أما ما كان من أمر إرسال عيسى فكان لتصحيح الفكر الذي غيَّره بنو إسرائيل وإعادتهم إلى المنهج الحق، فجاء في القرآن على لسان عيسى ابن مريم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦] ولما خرج بنو

إسرائيل عن دعوة الحق حرمهم الله من بعض الطيبات فحرمها عليهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦١] فأرسل الله عيسى لإعادة بني إسرائيل إلى المسار الصحيح مع إعادة حِلّ ما كان حرمهم منه، لذلك قال عيسى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥٠ ـ ٥١]، وقوله أيضاً: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ

وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقد تعهد الله تعالى بحفظ القرآن الكريم من التحريف أو التبديل إضافة أو نقصاناً، فهو في حفظ الله بآياته وأحكامه وتوجيهاته، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحج: ٩].

وهنا ردت جولي: لقد زال ما كان عندي من تساؤل، ومما رغبني في الإسلام عودتي مع كتيبة خالد بن الوليد ومشاهداتي لأحوال المسلمين عياناً في أوقات حربهم وسلمهم، هؤلاء بحق هم حملة الرسالة المؤتمنون عليها.

قال روماس: كما أن الإسلام يعترف بكل الأنبياء ويشيد بهم وبأتباعهم السابقين ولم ينكر أحداً منهم بل ويبني شريعته على أسس هؤلاء السابقين، فالقرآن ينطق بذلك ومن لم يؤمن بهم جميعاً وبكتبهم فلا إيمان له.

قالت جولي: ذكرني حال المسلمين وبذل الجهد في الدعوة بحال الحواريين الذين انطلقوا بالإخلاص والحماسة لتبليغ دعوة عيسى عليه السلام.

فأردف روماس: ولكن يا ابنتي الفرق أن أولئك نشروا الدين بجهودهم الفردية، فلم يكن عندهم أتباع ولا مناصرين، ولم تقم حروب عند تبليغهم الدعوة للناس، ولكن تحملوا الأذى والاضطهاد من الجبابرة والمعاندين، وصبروا على دعوة الحق وصبر من تبعهم بإخلاص حتى إن أحدهم لينشر بالمنشار نصفين لا يرده عن الحق شيء، وبعضهم يمشط ما بين جلده وعظمه بأمشاط الحديد وهو صامد على دعوة الحق، وهؤلاء المسلمون أيضاً قدموا نماذج من الصبر على الأذى في بدء الدعوة في مكة، ولما كثر الأتباع وأخذوا الدين بقوة عن النبي ﷺ ورسخت تعاليمه في القلوب، وقامت لهم دولة راسخة

البنيان أُمروا بالجهاد لتبليغ الدعوة، فقدموها بادئ الأمر سلماً للآخرين؛ فلما رفضها الحكام وأرباب المصالح كان لا بد من الجهاد لتبليغها؛ وإلا فكيف تصل إلى الناس إن حجبها ومنعها حكام السوء والظلم والفساد؟

وهنا نطقت جولي بالشهادتين، فانضم إليها جليلو وإيليا ثم أعادوا النطق بها مجتمعين: **أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.**

قال جليلو وهو في غاية السرور:

الحمد لله الذي هداكِ إلى الإسلام لنعيش في أسرة مسلمة سوياً عن حب وقناعة، ولكن يجب أن نعلن هذا أمام القائد، فقد وعدته بذلك.

قال روماس:

عليكِ بالاغتسال يا جولي، وأنتَ أيضاً يا

جليلو، وبعدها ستتعلمون كيفية أداء الصلاة، والآن حان وقت صلاة العصر، سنصليها معاً، ثم نذهب إلى لقاء خالد بن الوليد وأبي عبيدة عامر بن الجراح لتنجز يا جليلو وعدك أمامهما، فالوفاء بالوعد مطلوب.

مشت الخطة حسب ترتيب روماس فعلّم جليلو كيفية أداء الصلاة وما تحتاجه من قراءة للقرآن، وكذلك علمت مريم ابنتها جولي المعلومات الضرورية عن الطهارة والصلاة، كما علمتها وضع الحجاب وهو خاص بالنساء، ثم قاموا جميعاً إلى الصلاة؛ إيليا وجليلو، في الصف الأول ومريم وجولي في الصف الثاني يؤمهم روماس، فأدوا صلاة العصر، ثم انطلقوا لمقابلة خالد وأبي عبيدة، فوصلوا إلى الساحة التي اختطها المسلمون لتكون مسجداً، وكان وصولهم وقت الأذان لصلاة المغرب، فصلى المسلمون يؤمهم أبو

عبيدة، فكان الرجال في الصفوف الأمامية والأولاد في الصفوف التي تليهم والنساء في الصفوف التي تلي الأولاد، وكانت القراءة جهرية فسمعوا ترتيلاً لأبي عبيدة خشعت له القلوب كأنما القرآن يتنزل تلك الساعة، وبعد انتهاء الصلاة قام روماس وسلم على أبي عبيدة وعلى خالد، وأخبرهما خبر جليلو وجولي، فعلا البشر وجهيهما، وقالا:

الحمد لله على أن هداهما إلى الصراط المستقيم، ثم تقدم كل من جليلو وجولي للنطق بالشهادتين أمامهما وأمام جمع المسلمين فرد المسلمون بالتكبير والتهليل لهذا الحدث وعمت المسجد الفرحة والتهاني والدعاء لهما بالثبات على الحق وأن يكونا من أهل الخير والصلاح، وهُرع يونس الذي كان حاضراً إلى جليلو فهنأه وقبله فرحاً بهذا الخبر، وقد كان يظن أن جليلو بعد أن عادت إليه جولي سيبقى على دينه

السابق، فهو لم يره منذ عودة كتيبة خالد من مطاردة توما، كما سلم بحرارة على روماس وهنأه على سلوك هذه الأسرة الكريمة ودخولها في الإسلام.

بعد ذلك أعلن روماس موافقته على تزويج جليلو من جولي فعمت الفرحة أكثر، فكان يوماً مشهوداً.

وفي هذه الأثناء ورد البريد المستعجل من الخليفة عمر بن الخطاب، وفيه موافقته على تعيين روماس والياً على بصرى، وكان أبو عبيدة قد كتب كتاباً إلى الخليفة عمر بن الخطاب يزكي فيه روماس ويبين له ما قام به من جهاد وتقديم خدمات جليلة للمسلمين، فجاءت الموافقة بتعيينه والياً على بصرى، وأصبحت الفرحة أفراحاً حظيت بها هذه الأسرة الرومية المسلمة، وشاركهم فيها من كان حاضراً من المسلمين.

اجتماع الأسرة ولمُّ الشمل

حمل روماس كتاب التكليف وتوجه مع عائلته إلى بصرى يرافقهم إيليا الذي أحب أن يختم ما تبقى من حياته مع رفيق عمره روماس، خصوصاً أنه أصبح وحيداً في دمشق؛ فابنته أصرت على البقاء مع زوجها الذي تمسك بدينه ونوى الهجرة إلى القسطنطينية، فكانت إقامته مع روماس أهنأ لحياته وتفرغه لدينه الجديد.

كان الركب المتجه إلى بصرى مؤلفاً من عربة يقودها إيليا، وتحمل مريم وجولي والأمتعة، وحصان يركبه روماس وآخر يركبه جليلو.

انطلق الموكب بعد صلاة الفجر من دمشق، تطوي الأرض بهم طياً كأنما شعرت الخيل باشتياق قلوب الركب لبصرى وتوقهم للوصول إليها بأقصى سرعة، فكانت ترقل إرقالاً في نشاط غريب دون حث لها من راكبيها، وما إن بدأت

الشمس ترسل أشعتها الذهبية وتضيء الكون بإشراقها حتى بدت المسطحات الخضراء التي تسر الناظرين، مع جو ندي أمسك التراب عن الثوران، فكانت الطريق موطأة طرية تحت حوافر الخيل، مما جعلها سلسة القياد منتشية تختال كأنها تستعرض مهاراتها في المسير، ويدل على نشوتها وانشراحها حركات ذيلها وتصعير خدها.. فقد لاحظ إيليا غرابة أدائها فتبسم، وقال:

كأن خيلنا بصروية فهي أشد اشتياقاً لبصرى منا، لقد كفتني حثها، سيري على بركة الله.

وفي الطريق مرت الذكريات بجولي وهي لا تزال محفورة طرية في الذاكرة لم يتسرب إليها النسيان، كيف أخذت دون إرادتها إلى توما، ووقتها كان قلبها يخفق لوعة وأسى على فراق أهلها وحبيبها، واليوم تعود وقد تغير كل شيء.

دينها، فهي اليوم مسلمة تحمل مسؤولية هذا الانتساب عملاً وتطبيقاً وتعلماً ودعوة.

وعودة حميدة مع الأهل تكاد تطير بها من السرور، إنها تسبق بفكرها العربة لتصل سريعاً إلى بصرى، مرتع الصبا ومحل الذكريات الجميلة.

وإعلان زواجها من ابن عمها جليلو الذي أحبته.

ثم تقول: يا الله، من كان يدري أن ما كابدناه ينتهي بهذه النهاية الجميلة، فما بعد الشدة إلا الفرج، إنها حكمة الله الرؤوف الرحيم، لك الحمد والشكر رب السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه.

لقد رأينا إنعام الله علينا ونحن في أول الطريق، فقلبي الآن يملؤه الإيمان بالله والثقة بأننا على الحق.

كان هذا ما ورد بخاطر جولي.

أما والدتها مريم، فكانت مشرقة الوجه هادئة البال خافقة القلب بذكر الله سعيدة بالعودة إلى الديار وقد منّ الله عليها وعلى زوجها وابنتها بالإسلام، فسعادتها لا تقدر بثمن وفرحتها غامرة ند القلم عن وصفها، فها هو زوجها يعود والياً على بصرى، فهو لا يزال الحاكم لبصرى كأنما فارقها مسافراً ثم عاد، وهذا ما جعل لسانها يفيض بذكر الله وحمده وشكره.

أما روماس فكان ينظر إلى جليلو نظرة المعجب به وبما قام به من مغامرة ومخاطرة فحفظ لبيت روماس عزته وشرفه، فلم يتلوث عرضه ولم يدنس، وهذا ما سيقطع كل ألسنة السوء عنه؛ خصوصاً عندما سيتسلم ولاية بصرى، فالخصوم من قومه لا بد سيبحثون عن زلة له أو لأسرته، فكان من أعماق قلبه يقول:

الحمد لله على ما وهبنا ومنّ به علينا من نعم وعلى رأسها نعمة الإسلام، وإنه في غاية الامتنان إلى الخليفة عمر بن الخطاب وقادته الميامين الذين عرفوا لأهل الفضل فضلهم فكرموه وأعادوه إلى إمارة بصرى، وقد وضعوا الرجل المناسب في المكان المناسب، وبهذا مثلوا بأخلاقهم وفهمهم الإسلام أحسن تمثيل، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

لقد كان كل واحد من هذا الركب الصغير يغوص في أعماق الذكريات ويقارن ما بين يومه وأمسه ويرى بالأمل الواعد حاضره ومستقبله؛ فيترك على ثغره ابتسامة الرضا كأنه قد ولد من جديد، هذا ما لاحظه روماس عندما التفت فجأة إلى جليلو، وفاجأه بقوله:

إيه.. أين وصلت بك أحلامك يا جليلو؟

فانتبه جليلو وكأنما أيقظته كلمات عمه من سرحان في الذكريات، فقال:

نعم يا عماه قد كان خيالي يسرح في ذكريات جميلة، ثم انتقل الخيال بي لأعيش في مستقبل واعد جميل وأنا أبني في مخيلتي حياة المستقبل مع أنيستي وتوأم حبي جولي، ليتني أطير إلى بصرى فأصلها كما الحمام والطيور، فما زال أمامنا يوم أو أكثر. وهنا تبسم روماس وقال:

هذا هو دافع الحب والشوق، فمَثَلُك كمثل الشاعر العربي المشتاق لحبيبته عندما مر به سرب من القطا، فقال:

أسرب القطا هل من يعير جناحه
لعلي إلى من قد هويت أطير

ولكن لا عليك فجولي معنا والطريق يحتاج إلى الصبر فعش ما تبقّى منه مع أحلامك ولن أزعجك، فكلنا اليوم يحلم ويتذكر.

ثم مال روماس إلى نزل ليبيت ليلته ويريح ركائبه من عناء الطريق.

حطت القافلة الصغيرة أثقالها في نزل هادئ جميل فرحب أصحابه بالضيوف وأفردوا لهم جناحاً فخماً ثم أحضروا لهم العشاء، وعلى الطعام دارت أحاديث شتى شخصية وعامة، فتطرقت الأحاديث الشخصية إلى الأسماء، وهل ستبقى على حالها أم يجب عليهم أن يغيروها لتتناسب مع الدين الجديد الذي أنزله الله بلغة العرب؟

فكان اجتهاد روماس أن الاسم يبقى على حاله ولا حرج في ذلك، فالعرب الذين تنصروا أبقوا على أسمائهم العربية.

لكن إيليا رأى أنه ينبغي التميز وترك كل ما له صلة بالدين القديم، ليحسم المسلم أمره على ألا يعود لذلك الماضي، لأن عليه أن يتعرب، فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب وهو دستور الدين الإسلامي، والصلاة لا تصح إلا بتلاوة القرآن باللغة العربية، ولفهم القرآن ينبغي تعلم اللغة

العربية، وبالتالي فإن نطق أسمائنا الحالية سيكون ثقيلاً.

قالت مريم: في القرآن ذكرت مريم بالاسم فلا حاجة لتغيير اسمي، ضحك الجميع لذكاء الوالدة.

قال إيليا: أحسنت، لكن ما رأي روماس؟

روماس: أنا عُرفت بهذا الاسم وسأحتفظ به لأنني ألفته، كما أنه لم يبق في العمر كثير.

تأثر الحاضرون من كلامه ودعوا له بطول العمر، ثم تابع القول:

لكنّ الشباب أمامهم فسحة من العمر طويلة بإمكانهم التغيير ليكونوا في انسجام مع نظرائهم من المسلمين العرب، فما رأي جليلو وجولي؟

قال جليلو: سأختار اسماً لا يبعد عن اسمي كثيراً.

قال روماس: مثل ماذا؟

قال: جليل أو جلال، فما رأيكم؟

قال إيليا: فكرة ممتازة، وليكنْ جلال، وهنا أيد الجميع هذا الاختيار، ثم التفت إيليا إلى جولي وقال:

وأنت يا جولي هل فكرت في اسم آخر؟

قالت: نعم سأحتفظ باسم والدتي إذا سمحت لي بذلك.

أجاب روماس: يمكنك أن تحتفظي به بترتيب آخر لحروفه.

ردت جولي: وكيف؟

قال: حروف اسم والدتك أربعة، فيه حرفان متشابهان، نحذف أحدهما فيبقى ثلاثة، وضحك.

فأجاب إيليا من فوره: «ريم».

قال روماس: أحسنت، هذا ما قصدت.

قالت جولي: وماذا يعني ريم؟

قال: الغزالة الجميلة، وهو اسم يحبه العرب.

قالت مريم: هذا جميل والله.

فقبلت به جولي، وقالت:

منذ الساعة أنا **ريم**، ثم أردفت:

وأنت أيها العم **إيليا** على ماذا نويت؟

قال: سأحتفظ باسمي وأكون على خطا روماس خصوصاً أن اسمي هو لأحد الأنبياء وقد وردت أسماء الأنبياء عند العرب دون تغيير.

تابع الجميع تناول الطعام، ثم نهضوا الواحد تلو الآخر فغسلوا أيديهم وتوضؤوا وصلوا المغرب والعشاء جمعاً، ثم أخلدوا للنوم.

صحا الجميع في غاية النشاط فجراً وأدوا صلاة الفجر، وتناولوا مشروباً دافئاً وأتبعوه

بحليب البقر الذي أحضره لهم صاحب النزل، ثم أعطوه بعض المال، وجهزوا خيلهم وعربتهم وانطلقوا نحو بصرى كأنما ولدوا من جديد، يستحثون الخيل وهم في غاية السرور والنشاط، ولما دخلوا أجواء بصرى وتنسموا عبيرها الذي ألفوه ولاحت لهم السهول والجبال والشجر والمراعي وما فيها من أبقار وأغنام وسمعوا تغريد الطيور وهديل الحمام الذي ألف القرى الصغيرة المجاورة؛ داخلهم السرور، فتوقفوا قليلاً ليمتعوا النظر في هذه المعالم التي افتقدوها شهوراً، فأرواحهم هي التي أحست بها، لأن غذاء الجسم الذي ضم هذه الأرواح كان من ترابها الذي أنبت ذلك الغذاء، ومن هذا التمازج كان حب الوطن قاطن في كل روح، مهما كان ذلك الوطن دون النظر إلى طبيعته ووفرة غذائه وجماله، فكل الأوطان عند أهلها محببة وجميلة، لقد تغنى البدوي بصحرائه وتغنى الجبلي بأوديته

وجباله والسهلي بسهوله وأنهاره، فهذه هي جبلة المخلوقات، حتى الطير والحيوان، ألا ترى إلى الطير بعضه ينزل على شجيرات في جو صحراوي وهو يغرد ويغني، ولو انتقل ـ وهو الطائر الذي لا تحده حدود ـ أميالاً قليلة لوجد البساتين والزهور والجمال، لكنه ألف تلك الشجيرات التي نشأ عليها فأقام مسروراً فغنى وسجع، حتى الطيور المهاجرة لها وطنان، لأنها وزعت معيشتها بينهما، فهي دائمة الحنين لهما رغم بعد المسافات.

ولعل ما روي من حديث نبوي بأن الإنسان إذا نزل ببلد غير بلده أن يلعق شيئاً من تربتها ليتآلف معها غذاءً وروحاً، ويقول: «**بسم الله تربةُ أرضنا بريقَةِ بعضنا يُشفى سقيمُنا بإذن ربنا**».

وصل الركب إلى بصرى، ثم إلى دار الإمارة، فاستقبل بالترحاب ووجد المتصرف فيها قد وصله الخبر قبل وصولهم بساعات ـ وهذا هو

عمل النجّاب الذي يركب الناقة الذلول فيسابق بها الريح، وهذه كانت طريقة المسلمين في نقل الرسائل ـ بأن روماس أصبح والياً على بصرى بأمر الخليفة عمر بن الخطاب.

أما جلال، فكان هاجسَه بعد الوصول إلى بصرى والداه، فاستأذن وراح مسرعاً إلى المنزل، وكم كانت فرحته كبيرة حينما رآهما على قيد الحياة يتمتعان بصحة جيدة، فأبو جلال أكبر سناً من روماس، وكانت فرحتهما أيضاً بلقاء ولدهما لا توصف من السعادة والسرور، فأخذه والده وضمه إلى صدره ضمة محب مشوق وقد كان من قبل قد داخله اليأس في أن يراه ثانية، وكانت والدته بانتظار أن تقبّل ولدها الوحيد الذي غاب عنها وانقطعت أخباره وهي تمني النفس بأن تراه قبل مغادرتها الدنيا، فأخذته إلى صدرها وطبعت على خده قبلات الحنان. وقالا:

حمداً للرب أن أعادك إلينا.. قصَّ علينا أخبار رحلتك وغيابك هذه المدة.

قص جلال عليهما خبره بالتفصيل الممل فلم يترك شاردة ولا واردة منذ فترة غيابه إلا ذكرها، وأفاض عن ذكر مساعدة المسلمين له حتى استطاع أن ينقذ ابنة عمه، ثم أخبرهما خبر إسلامه مع عمه وابنة عمه وزوجة عمه، وقال لهما:

ألم تبلغكما دعوة المسلمين؟

أجاب الوالد: عرضت علينا وخشينا أن نفرط بديننا لجهلنا بالاختيار الأفضل، وكان مبلغ علمنا أن عمك انضم إلى المسلمين يوم حاصروا بصرى ثم غادرها معهم، ولم نلتق به لنعلم إن كان قد تبعهم وهو باق على دينه أم إنه أسلم؟

قال جلال:

أنتم هنا تعيشون تحت حكمهم فماذا وجدتم منهم؟

قال والده: كل خير، نحن ممن دفع الجزية ولم تمس أموالنا ولا أملاكنا ولا حريتنا في العبادة.

قال جلال: ألا تدل مثل هذه المعاملة التي تشهدونها وتعيشونها على أخلاق هؤلاء المسلمين؟ قال أبوه: وحق الرب يا بني إنها تدل على الوفاء وأن دين هؤلاء الذي يبشرون به يأمرهم بهذا وبفضائل الأعمال، وينهاهم عن الظلم والقهر وسلب المغلوبين ومصادرة موارد رزقهم.

رد جلال: ألا يدل هذا على أن دينهم دين سماوي فيه الثواب لمن أحسن والعقاب لمن أساء يأمرهم بالأخلاق الحسنة وينهاهم عن الشر والأذى، وأنه دين النبي الخاتم الذي بشر به الأنبياء، لقد آمنا نحن يا والدي عن اعتقاد ويقين ومخالطة للمسلمين فخبرناهم عن قرب، فما رأيك وقد بلغتك الدعوة الآن؟

قال: أنا معكم يا بني طالما اقتنعت أنت وعمك فلن أخالفكم، وكذلك كان جواب الأم، وهنا علمهم جلال النطق بالشهادتين، ثم قاما فاغتسلا وبدأ تعليمهما ما تعلمه هو، وقال:

لابد لنا من ملازمة المسلمين الذين سبقونا من الصحابة والأتباع لنأخذ عنهم ونستزيد من التفقه في الدين، ثم قال لوالديه:

ألا تريدان أن تسلما على عمي روماس؛ لقد أضحى والياً على بصرى بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب.

قال الوالد: كم أنا في شوق للقائه والجلوس معه.

ثم نهضوا جميعاً وتوجهوا إلى دار الولاية.

ولما دخلوا على روماس، هب من فرحته وتقدم للسلام على أخيه فضمه إلى صدره وهو يقول:

لقد التأم شملنا يا أخي، وهذا من إنعام الله وفضله علينا، ثم تبادلوا تهاني اللقاء والعودة الميمونة، ودخلوا في أحاديث ما مر وما مضى كل يذكر أخباره عن هذه الفترة التي غاب فيها بعضهم عن بعض، وكان من جملتها ذكر خبر خطبة جلال على ريم.

فرح أبوا جلال، وقالا:

هذا ما كنا ننتظره ونريده أن يتحقق، فلنبدأ أيامنا هذه بالأفراح، ثم عزموا ـ بعد تشاور ـ على أن يقيموا يوم الاثنين من الأسبوع القادم حفلاً لزواج ريم وجلال، فقبّل جلال يدي والديه، كما قبلت ريم يدي والديها، وتبودلت التهاني بين الأسرتين، وحمل والد جلال المهر إلى أخيه جرياً على تعاليم الدين الإسلامي، وبدأ تجهيز العروسين لهذا اليوم السعيد.

وفي الصباح انطلق **جلال وريم** في بصرى

وبساتينها يسلمان على حجرها وشجرها ويتذكران كل فج سلكاه فيها، وكل شجرة تسامرا تحتها، عادا إلى الوراء فعادت لهما الحياة بحبها ومتعتها، فجددا بهذه اللحظات أيام الطفولة والشباب وأمضيا يوماً جميلاً، مرت ساعاته عليهما مرور السحاب فلم يحسا بطولها، وهكذا هي أيام السعادة، كما لم يحسا فيه بجوع أو عطش؛ لكأنما أطعمتهما تلك الذكريات وسقتهما، ثم عاد كل إلى بيته، وأصبحت بعد ذلك لغة الخروج والتنزه بالإشارة المعهودة بينهما، ولكن هذه المرة كانت تخرج ريم مع جلال بحشمة المرأة المسلمة لا كما كانت من قبل.

وكان الزواج

يوم الاثنين تاريخ مشهود جمع بين الحبيبين ليذوقا فيه حلاوة الحب وعسيلته، فبعد الصبر

كان اللقاء واجتماع الحبيبين، لبست ريم ثوب الزفاف فكانت آية في الجمال، وتوافدت المهنئات، ونقرت قيمات الحفلات بالدفوف، وأنشدت المنشدات الأناشيد وقدمت لوازم الضيافة للمحتفلات، تحت أضواء المصابيح، ورقصت الفتيات الصغيرات على أنغام الدفوف، وعمت الدار الفرحة بالتهاني والتبريكات والدعوات للعروسين بأن يجمع الله بينهما بخير وأن يرزقهما الذرية الصالحة.

وكان عند الرجال حفل مماثل وأناشيد وأهازيج وتهاني وتبريكات.

قدم العشاء الفاخر والحلوى اللذيذة لكلا المجلسين، فاستمتع المحتفون والمحتفيات بهذا العرس البهي، ثم زف العريس إلى بيته الجديد وهناك وجد بانتظاره حبيبة القلب، فلما شاهدها حياها بالسلام ثم قال:

الحمد لله والشكر له، ما أسعدني بك، لقد رأى القمر في بيته وبين يديه وكأنه يراه للمرة الأولى، فردت ريم التحية بمثلها وقد تلألأت بشراً وسعادة، وقالت:

ليتني أكتب الشعر لكنت وصفت هذا اللقاء وما فيه من أحاسيس غامرة لأجسدها فلا تغادرنا أبداً.. ثم كان اللقاء الحميمي.

ضميمة

فقد كثرت في الأديرة الحانات وكان الذين يقومون على حاناتها فتيان الرهبان ونساء القساوسة وبناتهم. وخاصة في أيام الآحاد والأعياد حيث تتوافد مواكب النصارى في أبهى زينة وأجمل زي.

وقد وصف الشعراء هذه الأديرة وما يحيط بها من مظاهر الطبيعة. ووصفوا مجالس الشراب

في حاناتها. ودور الضيافة بها. وتغزلوا في راهباتها الجميلات وفي أولئك الفتيان والفتيات الذين كانوا يقومون عليها ويقدمون الخمر لروادها.

كان لا بد لتجار المتع أن يطفحوا بألسنتهم كل ما عندهم في هذا الوقت المبكر. ولهذا فتحت الأديرة أبوابها للقصاصين والشعراء. يقول صاحب حياة الشعر: كان من بين هؤلاء الشعراء جماعة يلازمون هذه الأديرة وكثر شعرهم فيها.

وقد تفنن الشعراء منذ الجاهلية بذكر الدمى والصور في الكنائس والديارات، وشبهوا حسانهم بها. وكان من هذه الأديرة ديارات مقصورة على النساء، كدير الخوَات بعكبرا، ودير العذارى بين سامراء وبغداد، ودير العذارى الذي بالحيرة، ودير القائم بالرقة، ودير العلث على دجلة، ودير

النساء بدمشق، ودير البنات بطرابلس، وغير ذلك كثير.

وقد ظلت الأديرة تمضي وفق المنهج الإغرائي والتمرد على القيم غير عابئة بقداسة المكان منذ العصر الجاهلي إلى الأموي والعباسي وفي الأندلس لكأنما اتخذت من هذه الممارسة مهنة لا تحيد عنها، حتى إن أحد الدعاة شاهد هذا في العصر الحديث في أمريكا، ولما وجه نقداً إلى القس المسؤول عما يجري من انحلال، أجابه: لقد أحجم الناس عن الكنيسة ونريدهم أن يحضروا بأية وسيلة.

قال ابن طناب اللبادي:

نَؤُمُّ بدير «أحويشا» غزالاً
غريب الحسن كالقمر اللياح
وكابدنا السرى شوقاً إليه
فوافينا الصباح مع الصباح

نزلنا منزلاً حسناً أنيقاً
بما نهواه معمور النواحي
قسمنا الوقت فيه لاغتباق
على الوجه المليح والاصطباح
ظللنا بين ريحان وراح
وأوتار تساعدنا فصاح

وقال حارثة بن بدر:

ألم تر أن حارثة بن بدر
أقام بدير أبلق من كوارا
مقيماً يشرب الصهباء صرفاً
إذا ما قلت تصرعه استدارا

وقال ابن أبي أمية:

تذكرتُ دير «الجاثليق» وفتية
بهم تم لي فيه السرور وأسعفا
بهم طابت الدنيا وأدركني المنى
وسالمني صرف الزمان وأتحفا

ألا ربَّ يـوم قـد نـعـمتُ بـظـلـه
أبـادر مـن لـذّات عـيـشي مـا صـفـا
أغـازل فـيـه أدعـج الـطـرف أغـيـداً
وأُسقى به مسكيّة الريح قرقفا

وقال الناجم:

آحِ قـلـبـي مـن الـصـبـابـة آحِ
مـن جـوارٍ مـزيّـنـات مـلاح
أهـل ديـر الـخـوَات بـالله ربـي
هل على عاشق قضى من جُناح
وفـتـاة كـأنـهـا غـصـنُ بـان
ذات وجه كـمـثـل نـور الـصـبـاح

وكُتب على حائط دير الرصافة ما شهد من أيام خوالي:

أيـا منـزلاً بـالـدير أصـبـح خـالـيـاً
تـلاعـب فـيـه شـمـأل ودبـور

كأنك لم تسكنك بيضٌ أوانسٌ
ولم تتبختر في فنائك حور

وقال مصعب الكاتب:

عمرتُ بقاع دير الزعفران
بفتيان غطارفة هجان

بكل فتى يحن إلى التصابي
ويهوى شرب عاتقة الدنان

ظللنا نعمل الكاسات فيه
على روض كنقش الخسروان

وأغصان تميل بها ثمار
قريبات من الجاني دوان

وغزلان مراتعها فؤادي
شجاني منهم ما قد شجاني

رضيت بهم من الدنيا نصيباً
غنيت بهم عن البيض الغواني

وقال جحظة:

سقيا ورَعيا لدير «الزندورد» وما
يحوي ويجمع من راح وغزلان
دير تدور به الأقداح مترعة
بكفّ ساق مريض الطرف وسنان
والعود يتبعه ناي يواقعه
والشدو يُحكمه غصن من البان
والقوم فوضى فضاً هذا يقبّل ذا
وذاك إنسان سوء فوق إنسان

وقال آخر:

يا ربَّ دير عمرته زمناً
ثالث قسيسه وشماسه
لا أعدم الكأس من يدي رشأ
يزري على المسك طيب أنفاسه
كأنه البدر لاح في ظلم الليل..
إذا حلَّ بين جُلاسه

كأن طيب الحياة واللهو..
واللذات طرّاً جُمعن في كاسه

في دير «فيثيون» ليلة الفصح..
والليل يهيم ناء بحراسه

وقال الصنوبري:

أمرُّ بدير مرّان فأحيا
وأجعل بيت لهوي بيت لهيا

ويبرد غلتي بردى فسقيا
لأيام على بردى ورعيا

ولي في باب جيرون ظباء
أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا

ونعم الدار داريا ففيها
حلا لي العيش حتى صار أريا

فمن تفاحة لم تعد خداً
ومن رمانة لم تخط ثديا

وقال أمية بن أبي الصلت المغربي:

يا «دير مرحنّا» لنا ليلة
لو شريت بالنفس لم تبخس
والليل في شملة ظلمائه
كأنه الراهب في البرنس
نشربها صهباء مشمولة
تغني عن المصباح في الحندس
يسعى بها أهيف طاوي الحشا
يرفل في ثوب من السندس
تُجنيك خداه وألحاظه
نوعين من ورد ومن نرجس
قد عقد المئزر من خصره
على قضيب البانة الأملس
يفعل في الشرب بألحاظه
أضعاف ما يُفعل بالأكؤس

وقال آخر:

نعم المحل لمن يسعى للذته
دير لمريم فوق الظهر معمور
ظل ظليل وماءٌ غير ذي أسنٍ
وقاصراتٌ كأمثال الدمى حور

وقال ابن الدهقان:

دير الثعالب مألف الضلال
ومحل كل غزالة وغزال
كم ليلة أحييتها ومنادمي
فيها أبح مقطّع الأوصال
سمح يجود بروحه فإذا مضى
وقضى سمحت له وجدت بمالي
ومنعم دين ابن مريم دينه
غنج يشوب مجونه بدلال
فرويته وشربت فضلة كأسه
فرويت من عذب المذاق زلالي

أمضيت في سر من رأى خير لذاتي
ونلت فيها منى نفسي وشهواتي
عمرت فيها بقاع اللهو منغمسا
في القصف ما بين أنهار وجنات
بدير مرمار إذ نحيي الصبوح به
ونعمل الكأس فيه بالعشيات
بين النواقيس والتقديس آونة
وتارة بين عيدان ونايات
وكم به من غزال أغيد غزل
يصيدنا باللحاظ البابليات